

سِلْسِلَةُ نَضْوَى تَارِيخِ الْإِسْلَامِ

(٩٥٧)

استشهاد الشنقيطي

بالمعلقات في تفسيره

أضواء البيان

د/ يوسف بن محمود طوسان

١٤٤٤ هـ

نسخة أولية من غير ترتيب او مراجعة

ومتاح لكل أحد الاستفادة منها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اما بعد

فهذه نصوص جمعت باستخدام برنامج شاملة وورد من برمجيات الدكتور سعود العقيل بواسطة
المكتبة الشاملة

معتمدة على توظيف الكلمة المفتاحية وتوفير النصوص للباحثين لتحريرها والاستفادة منها وهي
مشاعة لمن يستفيد منها

وسيتبعها نصوص أخرى يسر الله نشرها والله الموفق

يوسف بن حمود الحوشان

yhoshan@gmail.com

تليجرام <https://t.me/dralhoshan>

WWW.NS000S.COM

"أَي: سَاكِناً عَلَى حَالَةِ انْفِلَاقِهِ حَتَّى يَدْخُلُوا فِيهِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) لَمْ يُبَيَّنْ هُنَا هَلْ وَاعَدَهُ إِيَّاهَا مُجْتَمِعَةً أَوْ مُتَفَرِّقَةً؟ وَلَكِنَّهُ بَيَّنَّ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ أَنَّهَا مُتَفَرِّقَةٌ، وَأَنَّهُ وَاعَدَهُ أَوَّلًا ثَلَاثِينَ، ثُمَّ أَتَمَّهَا بِعَشْرِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَّمْنَاهَا بِعَشْرِ فَمَمَّ مِيقَاتِ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) [٧ \ ١٢٤] .

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) لظَاهِرٌ فِي مَعْنَاهُ: أَنَّ الْفُرْقَانَ هُوَ الْكِتَابُ الَّذِي أُوتِيَهُ مُوسَى، وَأَتَمَّا عَطَفَ عَلَى نَفْسِهِ تَنْزِيلاً لِتَعَايِيرِ الصِّفَاتِ مَنْزِلَةً تَعَايِيرِ الذَّوَاتِ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ الْكِتَابَ الَّذِي هُوَ التَّوْرَةُ مَوْصُوفٌ بِأَمْرَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ مَكْتُوبٌ كَتَبَهُ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ مُوسَى عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ فُرْقَانٌ؛ أَي: فَارَقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَعَطَفَ الْفُرْقَانَ عَلَى الْكِتَابِ، مَعَ أَنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ نَظَرًا لِتَعَايِيرِ الصِّفَتَيْنِ، كَقَوْلِ الشَّاعِرِ: [الْمُتَقَارِبُ]

إِلَى الْمَلِكِ الْقُرْمِ وَابْنِ الْهَمَامِ ... وَلَيْثِ الْكُتَيْبَةِ فِي الْمُرْدَحِمِ
بَلْ رُبَّمَا عَطَفَتِ الْعَرَبُ الشَّيْءَ عَلَى نَفْسِهِ مَعَ اخْتِلَافِ اللَّفْظِ فَقَطْ، فَاتَّكَفُوا بِالْمُعَايِرَةِ فِي اللَّفْظِ. كَقَوْلِ الشَّاعِرِ: [الْبَسِيطُ]

إِنِّي لِأَعْظُمُ فِي صَدْرِ الْكَمِيِّ عَلَى ... مَا كَانَ فِي مِنَ التَّجْدِيرِ وَالْقَصْرِ
الْقَصْرُ: هُوَ التَّجْدِيرُ بِعَيْنِهِ، وَقَوْلُ الْآخِرِ: [الْوَافِرُ]

وَقَدَدْتُ الْأَدِيمَ لِزَاهِشِيهِ ... وَأَلْفَى قَوْلُهَا كَذِبًا وَمِينَا

وَالْمِينُ: هُوَ الْكَذِبُ بِعَيْنِهِ، وَقَوْلُ الْآخِرِ: [الطَّوِيلُ]

أَلَا حَبْدًا هِنْدٌ وَأَرْضٌ بِهَا هِنْدٌ ... وَهِنْدٌ أَتَى مِنْ دُونِهَا النَّأْيُ وَالْبُعْدُ

وَالْبُعْدُ: هُوَ النَّأْيُ بِعَيْنِهِ، وَقَوْلُ عُنْتَرَةَ فِي **مُعَلَّقَتِهِ**: [الْكَامِلُ]

حَيَّيتَ مِنْ طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهْدُهُ ... أَفْقَى وَأَقْفَرُ بَعْدَ أُمِّ الْهَيْثَمِ

وَالْإِقْفَارُ: هُوَ الْإِقْوَاءُ بِعَيْنِهِ.

وَالدَّلِيلُ مِنَ الْقُرْآنِ عَلَى أَنَّ الْفُرْقَانَ هُوَ مَا أُوتِيَهُ مُوسَى . قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ) الْآيَةُ [١ \ ٤٨] .. (١)

"أَمَامَ الْكَفَّارِ ، وَقَدْ صَرَخَ تَعَالَى بِهَذَا الْمَدْلُولِ فِي قَوْلِهِ : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ [٨ \ ١٥] ، إِلَى قَوْلِهِ : وَبِئْسَ الْمَصِيرُ [٨ \ ١٦] ، وَفِي الْأَمْرِ بِالْإِكْتِنَارِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَضْيَاقِ الْأَوْقَاتِ وَهُوَ وَقْتُ التَّحَامِ الْقِتَالِ دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّ الْمُسْلِمَ يَنْبَغِي لَهُ الْإِكْتِنَارُ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، وَلَا سِيَّمَا فِي وَقْتِ الضَّيْقِ ، وَالْمُحِبُّ الصَّادِقُ فِي حُبِّهِ لَا يَنْسَى مَحَبُّوبَهُ عِنْدَ نُزُولِ الشَّدَائِدِ . قَالَ عَنَتَرَةُ فِي **مُعَلَّقَتِهِ** : [الْكَامِلُ]

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالرِّمَاحَ نَوَاهِلُ ... مَنِّي وَبِضْ الْهِنْدِ تَقْطُرُ مِنْ دَمِي
وَقَالَ الْآخَرُ :

ذَكَرْتُكَ وَالْحَطِيَّ يَخْطُرُ بَيْنَنَا ... وَقَدْ نَهَلْتُ فِينَا الْمُتَقَفَّةَ السُّمُرَ تَنْبِيَهُ
قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : كُلُّ «لَعَلٍّ» فِي الْقُرْآنِ فَهِيَ لِلتَّغْلِيلِ إِلَّا الَّتِي فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ : وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَحْلُدُونَ [١٢٩] ، فَهِيَ بِمَعْنَى «كَأَنَّكُمْ تَحْلُدُونَ» .

قَالَ مُقْبِدُهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ : لَفْظَةُ «لَعَلٍّ» قَدْ تَرَدَّدَتْ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ مُرَادًا بِهَا التَّغْلِيلُ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ : [الطَّوِيلُ]
فَقُلْتُمْ لَنَا كُفُّوا الْحُرُوبَ لَعَلَّنَا نَكْفُ وَوَتَّقْتُمْ لَنَا كُلَّ مَوْثِقٍ فَلَمَّا كَفَفْنَا الْحَرْبَ كَانَتْ عُهُودُكُمْ كَشِبَهُ سَرَابٍ بِالْمَلَا
مُتَأَلِّقٍ فَقَوْلُهُ «لَعَلَّنَا نَكْفُ» يَعْنِي : «لَأَجَلِ أَنْ نَكْفُ» ، وَكَوْنُهَا لِلتَّغْلِيلِ لَا يُنَافِي «مَعْنَى الِثَرَجِي» ؛ لِأَنَّ
وُجُودَ الْمَعْلُولِ يُرْجَى عِنْدَ وُجُودِ عَلَّتِهِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : وَلَا تَنَارَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ الْآيَةَ .
نَهَى اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَنِ التَّنَارُعِ ، مُبَيِّنًا أَنَّهُ سَبَبُ الْفَشَلِ ، وَذَهَابُ الْقُوَّةِ ، وَنَهَى
عَنِ الْفُرْقَةِ أَيْضًا فِي مَوَاضِعٍ أُخَرَ ، كَقَوْلِهِ : وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا [٣ \ ١٠٣] ، وَنَحْوَهَا مِنَ
الْآيَاتِ ، وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ [٨ \ ٤٦] ، أَيُّ : قُوَّتُكُمْ .

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : نَصَرْتُكُمْ ، كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ : الرِّيحُ لِفُلَانٍ ؛ إِذَا كَانَ غَالِبًا ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ : [الْوَافِرُ] . (٢)

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٣٧/١

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ١٠٢/٢

"فَمِنْ ذَلِكَ مَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ (فِي كِتَابِ الصَّلَاةِ) ، قَالَ: (بَابُ إِنْ صَلَّى فِي ثَوْبٍ مُصَلَّبٍ، أَوْ تَصَاوِيرٍ: هَلْ يُفْسِدُ صَلَاتَهُ؟ وَمَا يُنْهَى عَنْ ذَلِكَ، حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَارِثِ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ صُهَيْبٍ، عَنْ أَنَسٍ: كَانَ قِرَامٌ لِعَائِشَةَ سَتَرَتْ بِهِ جَانِبَ بَيْتِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " أَمِيطِي عَنَّا قِرَامَكَ هَذَا ؛ إِنَّهُ لَا تَزَالُ تَصَاوِيرُهُ تَعْرِضُ فِي صَلَاتِي " . وَقَالَ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا (فِي كِتَابِ اللَّبَاسِ، بَابُ كَرَاهِيَةِ اللَّبَاسِ فِي التَّصَاوِيرِ) : حَدَّثَنَا عِمْرَانُ بْنُ مَيْسَرَةَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَارِثِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ صُهَيْبٍ، عَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، قَالَ: كَانَ قِرَامٌ لِعَائِشَةَ سَتَرَتْ بِهِ جَانِبَ بَيْتِهَا، فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " أَمِيطِي عَنِّي ؛ فَإِنَّهُ لَا تَزَالُ تَصَاوِيرُهُ تَعْرِضُ لِي فِي صَلَاتِي " .

وَقَالَ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْقَاسِمِ، قَالَ: سَمِعْتُ الْقَاسِمَ يُحَدِّثُ عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّهَا كَانَ لَهَا ثَوْبٌ فِيهِ تَصَاوِيرٌ مَمْدُودٌ إِلَى سَهْوَةٍ، فَكَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُصَلِّي إِلَيْهِ، فَقَالَ: " أَخْرِجِي عَنِّي " ، قَالَتْ: فَأَخْرَجْتُهُ فَجَعَلْتُهُ وَسَائِدًا. وَالثَّوْبُ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ هُوَ الْقِرَامُ الْمَذْكُورُ، وَالْقِرَامُ - بِالْكَسْرِ - : سِتْرٌ فِيهِ رَقْمٌ وَنُقُوشٌ، أَوْ السِّتْرُ الرَّقِيقُ، وَمِنْهُ قَوْلُ لَبِيدٍ فِي **مُعَلَّقَتِهِ** يَصِفُ الْهُودَجَ:

مِنْ كُلِّ مَخْفُوفٍ يُظِلُّ عَصِيَّهُ ... زَوْجٌ عَلَيْهِ كَلَّةٌ وَقِرَامُهَا
وَقَوْلُ الْآخَرِ يَصِفُ دَارًا:

عَلَى ظَهْرِ جَرَعَاءِ الْعُجُوزِ كَأَنَّهَا ... دَوَائِرُ رَقْمٍ فِي سَرَاةِ قِرَامٍ
وَالْكَلَّةُ فِي بَيْتِ لَبِيدٍ: هِيَ الْقِرَامُ إِذَا خِيطَ فَصَارَ كَالْبَيْتِ.

فَهَذِهِ النُّصُوصُ الصَّحِيحَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا تَجُوزُ الصَّلَاةُ إِلَى التَّمَاثِيلِ. وَمِمَّا يَدُلُّ لِدَلِيلِكَ مَا أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - : أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتَا كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِالْحَبَشَةِ، فِيهَا تَصَاوِيرٌ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " إِنْ أُولِئِكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرِ، أُولِئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " . اهـ. هَذَا لَفْظُ مُسْلِمٍ، وَلَفْظُ الْبُخَارِيِّ قَرِيبٌ مِنْهُ. اهـ.

أَمَّا بُطْلَانُ صَلَاةٍ مَنْ صَلَّى إِلَى التَّمَاثِيلِ، فَفِيهِ اخْتِلَافٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ، وَقَدْ أَشَارَ لَهُ. (١)

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٣٠٧/٢

"الآيَةُ [٣٣ \ ٣٩] ، وَقَوْلُهُ: إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ الْآيَةُ [٩ \ ١٨] ، وَقَوْلُهُ: إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [٣ \ ١٧٥] ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا، الدِّينُ هُنَا: الطَّاعَةُ. وَمِنْهُ سُمِّيَتْ أَوَامِرُ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ دِينًا ؛ كَقَوْلِهِ: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ [٣ \ ١٩] ، وَقَوْلُهُ: وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا [٥ \ ٣] ، وَقَوْلُهُ: وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ [٣ \ ٨٥] .

وَالْمُرَادُ بِالدِّينِ فِي الْآيَاتِ: طَاعَةُ الدِّينِ بِامْتِنَالِ جَمِيعِ الْأَوَامِرِ، وَاجْتِنَابِ جَمِيعِ النَّوَاهِي. وَمَنْ الدِّينِ بِمَعْنَى الطَّاعَةِ: قَوْلُ عَمْرِو بْنِ كُلْثُومٍ فِي **مُعَلَّقَتِهِ**:
وَأَيَّامَ لَنَا غُرٌّ كِرَامٍ ... عَصَيْنَا الْمَلِكَ فِيهَا أَنْ نَدِينَا

أَيُّ: عَصَيْنَاهُ وَامْتَنَعْنَا أَنْ نَدِينَهُ لَهُ، أَيُّ: نُطِيعُهُ. وَقَوْلُهُ وَاصِبًا [١٦ \ ٥٢] ، أَيُّ: دَائِمًا، أَيُّ: لَهُ - جَلٌّ وَعَلَا - : الطَّاعَةُ وَالذُّلُّ وَالْخُضُوعُ دَائِمًا ؛ لِأَنَّهُ لَا يَضْعُفُ سُلْطَانُهُ، وَلَا يُعْزَلُ عَنْ سُلْطَانِهِ، وَلَا يَمُوتُ وَلَا يُغْلَبُ، وَلَا يَتَغَيَّرُ لَهُ حَالٌ بِخِلَافِ مُلُوكِ الدُّنْيَا ؛ فَإِنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ يَكُونُ مُطَاعًا لَهُ السُّلْطَانَةُ وَالْحُكْمُ، وَالنَّاسُ يَخَافُونَهُ وَيَطْمَعُونَ فِيمَا عِنْدَهُ بُرْهَةً مِنَ الزَّمَنِ، ثُمَّ يُعْزَلُ أَوْ يَمُوتُ، أَوْ يُذَلُّ بَعْدَ عِزٍّ، وَيَتَضَعُ بَعْدَ رِفْعَةٍ ؛ فَيَبْقَى لَا طَاعَةَ لَهُ وَلَا يَعْجَبُ بِهِ أَحَدٌ، فَسُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ، وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا.

وَهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ مَفْهُومُ الْآيَةِ بَيَّنَّهُ - جَلٌّ وَعَلَا - فِي مَوَاضِعٍ أُخَرَ ؛ كَقَوْلِهِ: قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ [٣ \ ٢٦] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ [٥٦ \ ٣] ؛ لِأَنَّهَا تَرْفَعُ أَقْوَامًا كَانَتْ مُنْزَلَتْهُمْ مُنْخَفِضَةً فِي الدُّنْيَا، وَتُخَفِّضُ أَقْوَامًا كَانُوا مُلُوكًا فِي الدُّنْيَا، لَهُمُ الْمَكَانَةُ الرَّفِيعَةُ، وَقَوْلُهُ: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ [٤٠ \ ١٦] .
وَنُظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ الْمَذْكُورَةِ قَوْلُهُ: وَيُفْذَقُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُخُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ [٣٧ \ ٨ - ٩] ، أَيُّ: دَائِمٌ. وَقِيلَ: عَذَابٌ مُوجِعٌ مُؤْلِمٌ، وَالْعَرَبُ تُطْلِقُ الْوَصْبَ عَلَى الْمَرَضِ، وَتُطْلِقُ الْوُصُوبَ عَلَى الدَّوَامِ. وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ لَمَّا سَأَلَهُ نَافِعُ بْنُ الْأَزْرَقِ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا [١٦ \ ٥٢] ، قَالَ لَهُ: الْوَاصِبُ: الدَّائِمُ، وَاسْتَشْهَدَ لَهُ بِقَوْلِ أُمِّيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ الثَّقَفِيِّ: " (١)

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٣٨٣/٢

"فَلَا إِشْكَالَ فِي سُمُولِ الْهَلَاكِ لِلْحَيَوَانَاتِ الَّتِي لَا تَعْقِلُ. وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ إِهْلَاكَ قَوْمٍ أَمَرَ نَبِيَّهُمْ وَمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا عَنْهُمْ ؛ لِأَنَّ الْهَلَاكَ إِذَا نَزَلَ عَمَّ.

تَنْبِيْهُ.

فَقَوْلُهُ: مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ [١٦ \ ٦١] ، الضَّمِيرُ فِي «عَلَيْهَا» ، رَاجِعٌ إِلَى غَيْرِ مَذْكُورٍ وَهُوَ الْأَرْضُ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: مِنْ دَابَّةٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّ مِنَ الْمَعْلُومِ: أَنَّ الدَّوَابَّ إِنَّمَا تَدِبُّ عَلَى الْأَرْضِ. وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ [٣٥ \ ٤٥] ، وَقَوْلُهُ: حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ [٣٨ \ ٣٢] ، أَيِ: الشَّمْسِ وَلَمْ يَجْرِ لَهَا ذِكْرٌ، وَرُجُوعُ الضَّمِيرِ إِلَى غَيْرِ مَذْكُورٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ الْمَقَامُ كَثِيرٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ حُمَيْدِ بْنِ ثَوْرٍ:

وَصَهْبَاءُ مِنْهَا كَالسَّفِينَةِ نَضَجَتْ ... بِهِ الْحَمْلُ حَتَّى زَادَ شَهْرًا عَدِيدُهَا

فَقَوْلُهُ: «صَهْبَاءُ مِنْهَا» ، أَيِ: مِنَ الْإِبِلِ، وَتَدُلُّ لَهُ قَرِينَةُ «كَالسَّفِينَةِ» مَعَ أَنَّ الْإِبِلَ لَمْ يَجْرِ لَهَا ذِكْرٌ، وَمِنْهُ أَيْضًا قَوْلُ حَاتِمِ الطَّائِي:

أَمَاوِيُّ مَا يُعْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتَى ... إِذَا حَشَرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

فَقَوْلُهُ: «حَشَرَجَتْ وَضَاقَ بِهَا» يَعْنِي النَّفْسَ، وَلَمْ يَجْرِ لَهَا ذِكْرٌ ؛ كَمَا تَدُلُّ لَهُ قَرِينَةُ «وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ» ، وَمِنْهُ أَيْضًا لَبِيدٌ فِي **مُعَلَّقَتِهِ**:

حَتَّى إِذَا أَلْقَتْ يَدًا فِي كَافِرٍ ... وَأَجَنَّ عَوْرَاتِ الثُّغُورِ ظِلَامُهَا

فَقَوْلُهُ: «أَلْقَتْ يَدًا فِي كَافِرٍ» ، أَيِ: الشَّمْسِ، وَلَمْ يَجْرِ لَهَا ذِكْرٌ، وَلَكِنْ يَدُلُّ لَهُ قَوْلُهُ: وَأَجَنَّ عَوْرَاتِ الثُّغُورِ ظِلَامُهَا.

لِأَنَّ قَوْلَهُ: «أَلْقَتْ يَدًا فِي كَافِرٍ» ، أَيِ: دَخَلَتْ فِي الظَّلَامِ. وَمِنْهُ أَيْضًا قَوْلُ طُرْقَةَ فِي **مُعَلَّقَتِهِ**:

عَلَى مِثْلِهَا أَمْضِي إِذَا قَالَ صَاحِبِي ... أَلَا لَيْتَنِي أَفْدِيكَ مِنْهَا وَأَفْتَدِي

فَقَوْلُهُ: «أَفْدِيكَ مِنْهَا» ، أَيِ: الْفَلَاةِ، وَلَمْ يَجْرِ لَهَا ذِكْرٌ، وَلَكِنَّ قَرِينَةَ سِيَاقِ الْكَلَامِ تَدُلُّ عَلَيْهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: يُؤَاخِذُ الْآيَةَ [١٦ \ ٦١] ، الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُفَاعَلَةَ فِيهِ بِمَعْنَى الْفِعْلِ الْمُجَرَّدِ

؛ فَمَعْنَى آخِذَ النَّاسِ يُؤَاخِذُهُمْ: أَخَذَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ؛ لِأَنَّ الْمُفَاعَلَةَ. " (١)

"شَيْءٌ وَلَا عَنِ التَّابِعِينَ ؛ إِلَّا عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّحَعِيِّ. انْتَهَى مَحَلُّ الْعَرَضِ مِنْ (فَتْحِ الْبَارِي) بِحَذْفِ مَا لَا

حَاجَةً إِلَيْهِ.

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٣٩٢/٢

قَالَ مُقْبِدُهُ - عَفَا اللَّهُ عَنْهُ -: تَحْرِيمُ قَلِيلِ النَّبِيدِ الَّذِي يُسَكَّرُ كَثِيرُهُ لَا شَكَّ فِيهِ ؛ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ تَصْرِيحِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِأَنَّ: «مَا أَسَكَّرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ» .

وَأَعْلَمَ: أَنَّ قِيَاسَ النَّبِيدِ الْمُسَكَّرِ كَثِيرُهُ عَلَى الْحَمْرِ بِجَامِعِ الْإِسْكَارِ لَا يَصِحُّ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - صَرَّحَ بِأَنَّ «كُلَّ مُسَكَّرٍ حَرَامٌ» ، وَالْقِيَاسُ يُشْتَرَطُ فِيهِ أَلَّا يَكُونَ حُكْمُ الْفَرْعِ مَنْصُوصًا عَلَيْهِ كَحُكْمِ الْأَصْلِ. كَمَا أَشَارَ لَهُ فِي مَرَاقِي السُّعُودِ بِقَوْلِهِ:

وَحَيْثُمَا يَنْدَرِجُ الْحُكْمَانِ ... فِي النَّصِّ فَلَا مَرَانَ قُلْ سَيَّانِ

وَقَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ: وَجَاءَ أَهْلُ الْكُوفَةِ بِأَخْبَارٍ مَعْلُومَةٍ، وَإِذَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الشَّيْءِ وَجَبَ رُدُّ ذَلِكَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - . اهـ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ الْآيَةَ، الْمُرَادُ بِالْإِيحَاءِ هُنَا: الْإِلْهَامُ. وَالْعَرَبُ تُطْلِقُ الْإِيحَاءَ عَلَى الْإِعْلَامِ بِالشَّيْءِ فِي حُفْيَةٍ ؛ وَلِذَا تُطْلَفُهُ عَلَى الْإِشَارَةِ، وَعَلَى الْكِتَابَةِ، وَعَلَى الْإِلْهَامِ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ [١٦ \ ٦٨] ، أَيُّ: أَلْهَمَهَا. وَقَالَ: فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةَ الْآيَةِ [١٩ \ ١١] ، أَيُّ: أَشَارَ إِلَيْهِمْ. وَسَمَّى أَمْرَهُ لِلأَرْضِ إِيحَاءً فِي قَوْلِهِ: يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا [٩٩ \ ٤] ، [٥] ، وَمِنْ إِطْلَاقِ الْوَحْيِ عَلَى الْكِتَابَةِ قَوْلُ لَبِيدٍ فِي **مُعَلَّقَتِهِ**:

فَمَدَافِعُ الرِّيَّانِ غُرِّي رَسْمُهَا ... خَلَقًا كَمَا ضَمِنَ الْوَحْيُ سِلَاقُهَا

فَ «الْوَحْيِ» فِي الْبَيْتِ (بِضَمِّ الْوَاوِ وَكَسْرِ الْحَاءِ وَتَشْدِيدِ الْيَاءِ) جَمْعُ وَحْيٍ بِمَعْنَى الْكِتَابَةِ. وَسَيَأْتِي لِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - زِيَادَةٌ إِضَاحٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَنِئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ، بَيَّنَّ - جَلَّ وَعَلَا - فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ مِنْ النَّاسِ مَنْ يَمُوتُ قَبْلَ بُلُوغِ أَرْدَلِ الْعُمُرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعَمَّرُ حَتَّى يُرَدَّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ. وَأَرْدَلُ الْعُمُرِ آخِرُهُ الَّذِي تَفْسُدُ فِيهِ الْحَوَاسُّ، وَيَحْتَثِلُ فِيهِ النُّطْقُ وَالْفِكْرُ، وَخُصَّ بِالرَّذِيلَةِ ؛ لِأَنَّهُ حَالٌ لَا رَجَاءَ بَعْدَهَا لِإِصْلَاحِ مَا فَسَدَ. بِخِلَافِ حَالِ الطُّفُولَةِ، فَإِنَّهَا حَالَةٌ يُنْتَقَلُ مِنْهَا إِلَى الْقُوَّةِ وَإِدْرَاكِ الْأَشْيَاءِ. وَأَوْضَحَ هَذَا الْمَعْنَى فِي مَوَاضِعٍ أُخَرَ ؛ كَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْحَجِّ: وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَقَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى

أَرَذَلَ الْعُمَرُ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا [٢٢ \ ٥] ، وَقَوْلِهِ فِي الرُّومِ: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ. (١)

"بَعْدَ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً الْآيَةُ [٣٠ \ ٥٤] ، وَأَشَارَ إِلَى ذَلِكَ أَيْضًا بِقَوْلِهِ: وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ [٣٥ \ ١١] ، وَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنِينَ: ثُمَّ لَنُكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلَنُبَلِّغُكُمْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [٤٠ \ ٦٧] .

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ فِي الْكَلَامِ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: بَابُ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرَذَلِ الْعُمَرِ [١٦ \ ٧٠] ، حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا هَارُونُ بْنُ مُوسَى أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْأَعْمُورُ، عَنْ شُعَيْبٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ -: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ يَدْعُو: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْبُخْلِ وَالْكَسَلِ، وَأَرَذَلِ الْعُمَرِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَفِتْنَةِ الدَّجَالِ، وَفِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ» ، اه. وَعَنْ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ -: أَنَّ أَرَذَلَ الْعُمَرِ خُمْسٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً. وَعَنْ قَتَادَةَ: تِسْعُونَ سَنَةً. وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَا تَحْدِيدَ لَهُ بِالسِّنِينَ، وَإِنَّمَا هُوَ بِاعْتِبَارِ تَفَاوُتِ حَالِ الْأَشْخَاصِ ؛ فَقَدْ يَكُونُ ابْنُ خُمْسٍ وَسَبْعِينَ أَوْ ضَعْفَ بَدَنًا وَعَقْلًا، وَأَشَدَّ خَرَفًا مِنْ آخَرِ ابْنِ تِسْعِينَ سَنَةً، وَظَاهِرُ قَوْلِ زُهَيْرٍ فِي **مُعَلَّقَتِهِ**: سَمِثْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشَ ... ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَا لَكَ يَسَامُ

أَنَّ ابْنَ الثَّمَانِينَ بَالِغٌ أَرَذَلَ الْعُمَرِ ، وَيَدُلُّ لَهُ قَوْلُ الْآخَرِ:

إِنَّ الثَّمَانِينَ وَبُلَّغَتْهَا ... قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تُرْجُمَانٍ

وَقَوْلُهُ: «لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا» [١٦ \ ٧٠] (أَيُّ يُرَدُّ إِلَى أَرَذَلِ الْعُمَرِ، لِأَجْلِ أَنْ يَزُولَ مَا كَانَ يَعْلَمُ مِنَ الْعِلْمِ أَيَّامَ الشَّبَابِ، وَيَبْقَى لَا يَدْرِي شَيْئًا ؛ لِذَهَابِ إِدْرَاكِهِ بِسَبَبِ الْخَوْفِ. وَلِلَّهِ فِي ذَلِكَ حِكْمَةٌ. وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ الْعُلَمَاءَ الْعَامِلِينَ لَا يَنَالُهُمْ هَذَا الْخَرَفُ وَضَيَاعُ الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ مِنْ شِدَّةِ الْكِبَرِ، وَيُسْتَرْوَحُ لِهَذَا الْمَعْنَى مِنْ بَعْضِ التَّفْسِيرَاتِ) فِي قَوْلِهِ: ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ الْآيَةُ [٩٥ \ ٥ - ٦] .

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ، أَظْهَرَ التَّفْسِيرَاتِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ اللَّهَ ضَرَبَ فِيهَا

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٤٠٩/٢

مَثَلًا لِلْكَفَّارِ، بَأَنَّهُ فَضَّلَ بَعْضُ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ، وَمِنْ ذَلِكَ تَفْضِيلُهُ الْمَالِكِينَ عَلَى الْمَمْلُوكِينَ فِي الرِّزْقِ، وَأَنَّ الْمَالِكِينَ لَا يَرْضَوْنَ لِأَنْفُسِهِمْ أَنْ يَكُونَ الْمَمْلُوكُونَ شُرَكَاءَهُمْ فِيمَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ مِنْ. " (١)

"يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ، إِلَى قَوْلِهِ: وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ... . الْآيَةُ [١٦ \ ٩٠] ، وَكَقَوْلِهِ فِي (سُورَةِ الْبَقَرَةِ) بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ أَحْكَامَ الطَّلَاقِ وَالرَّجْعَةِ: ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ [٢ \ ٢٣٢] ، وَقَوْلِهِ (فِي الطَّلَاقِ) فِي نَحْوِ ذَلِكَ أَيْضًا: ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَقَوْلِهِ فِي النَّهْيِ عَنْ مِثْلِ قَذْفِ عَائِشَةَ: يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا... . الْآيَةُ [٢٤ \ ١٧] ، مَعَ أَنَّ الْمَعْرُوفَ عِنْدَ النَّاسِ: أَنَّ الْوَعِظَ يَكُونُ بِالْتَّرْغِيبِ وَالتَّهْذِيبِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، لَا بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ.

فَالْجَوَابُ: أَنَّ ضَابِطَ الْوَعِظِ: هُوَ الْكَلَامُ الَّذِي تَلِينُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَأَعْظَمُ مَا تَلِينُ لَهُ الْقُلُوبُ الْعُقُلَاءُ أَوْامِرُ رَبِّهِمْ وَنَوَاهِيهِ ؛ فَإِنَّهُمْ إِذَا سَمِعُوا الْأَمْرَ خَافُوا مِنْ سُخْطِ اللَّهِ فِي عَدَمِ امْتِثَالِهِ، وَطَمِعُوا فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الثَّوَابِ فِي امْتِثَالِهِ. وَإِذَا سَمِعُوا النَّهْيَ خَافُوا مِنْ سُخْطِ اللَّهِ فِي عَدَمِ اجْتِنَابِهِ، وَطَمِعُوا فِيمَا عِنْدَهُ مِنَ الثَّوَابِ فِي اجْتِنَابِهِ ؛ فَحَدَاهُمْ حَادِي الْخَوْفِ وَالطَّمَعِ إِلَى الْإِمْتِثَالِ، فَلَانَتْ قُلُوبُهُمْ لِلطَّاعَةِ خَوْفًا وَطَمَعًا. وَالْفَحْشَاءُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ: الْخُصْلَةُ الْمُتَنَاهِيَةُ فِي الْقُبْحِ. وَمِنْهُ قِيلَ لِشَدِيدِ الْبُحْلِ: فَاحِشٌ ؛ كَمَا فِي قَوْلِ طُرْفَةَ فِي **مُعَلَّقَتِهِ**:

أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَاقُ الْكِرَامَ وَيَصْطَفِي ... عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ
وَالْمُنْكَرُ اسْمُ مَفْعُولٍ أَنْكَرَ ؛ وَهُوَ فِي الشَّرْعِ: مَا أَنْكَرَهُ الشَّرْعُ وَنَهَى عَنْهُ، وَأَوْعَدَ فَاعِلُهُ الْعِقَابَ. وَالْبَغْيُ: الظُّلْمُ.

وَقَدْ بَيَّنَّ تَعَالَى: أَنَّ الْبَاغِيَ يَرْجِعُ ضَرَرُ بَغْيِهِ عَلَى نَفْسِهِ فِي قَوْلِهِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ [١٠ \ ٢٣] ، وَقَوْلِهِ: وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ [٣٥ \ ٤٣] ، وَقَوْلِهِ: ذِي الْقُرْبَى [١٦ \ ٩٠] ، أَيُّ: صَاحِبِ الْقَرَابَةِ مِنْ جِهَةِ الْأَبِ أَوْ الْأُمِّ، أَوْ هُمَا مَعًا ؛ لِأَنَّ إِيْتَاءَ ذِي الْقُرْبَى صَدَقَةً وَصِلَةٌ رَحِمٍ. وَالْإِيْتَاءُ: الْإِعْطَاءُ. وَأَحَدُ الْمَفْعُولَيْنِ مَحْذُوفٌ ؛ لِأَنَّ الْمَصْدَرَ أُضِيفَ إِلَى الْمَفْعُولِ الْأَوَّلِ: وَحُذِفَ الثَّانِي. وَالْأَصْلُ: وَإِيْتَاءُ صَاحِبِ الْقَرَابَةِ ؛ كَقَوْلِهِ: وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى... . الْآيَةُ [٢ \ ١٧٧] ،

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ أَمَرَ - جَلَّ وَعَلَا - فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عِبَادَهُ أَنْ يُوفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٤١٠/٢

إِذَا عَاهَدُوا. وَظَاهِرُ الْآيَةِ أَنَّهُ شَامِلٌ لِجَمِيعِ الْعُهُودِ فِيمَا بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، وَفِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ. وَكَرَّرَ هَذَا فِي مَوَاضِعٍ أُخَرٍ ؛ كَقَوْلِهِ (فِي الْأَنْعَامِ) :، وَبَعْدَهُ. (١)

"وَمِنْ أَمْثَلِهِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ قَوْلُ امْرِئِ الْقَيْسِ:

كَبُرَ الْمُقَانَاةُ الْبَيَاضُ بِصُفْرَةٍ ... غَدَاها نَمِيرُ الْمَاءِ غَيْرُ الْمُحَلَّلِ

لِأَنَّ الْمُقَانَاةَ هِيَ الْبُكْرُ بَعَيْنِهَا، وَقَوْلُ عَنَتَرَةَ فِي مُعَلَّقَتِهِ:

وَمِشَلٌّ سَابِغَةٌ هَتَكْتُ فُرُوجَهَا ... بِالسَّيْفِ عَنْ حَامِي الْحَقِيقَةِ مُعَلِّمٍ

لِأَنَّ مُرَادَهُ بِالْمِشَلِّ: السَّابِغَةُ بَعَيْنِهَا، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: هَتَكْتُ فُرُوجَهَا ؛ لِأَنَّ الضَّمِيرَ عَائِدٌ إِلَى السَّابِغَةِ الَّتِي عَبَّرَ عَنْهَا بِالْمِشَلِّ.

وَقَدْ أَوْضَحْنَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فِي كِتَابِنَا (دَفْعُ إِيهَامِ الاضْطِرَابِ عَنْ آيَاتِ الْكِتَابِ) فِي سُورَةِ فَاطِرٍ، وَبَيَّنَّا أَنَّ الَّذِي يَظْهَرُ لَنَا: أَنَّ إِضَافَةَ الشَّيْءِ إِلَى نَفْسِهِ مَعَ اخْتِلَافِ لَفْظِ الْمُضَافِ وَالْمُضَافِ إِلَيْهِ أُسْلُوبٌ مِنْ أَسَالِيِبِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ؛ لِأَنَّ تَغَايِيرَ اللَّفْظَيْنِ رُبَّمَا نُزِّلَ مَنْزِلَةُ التَّغَايِيرِ الْمَعْنَوِيَّةِ لِكَثْرَةِ الْإِضَافَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ وَفِي كَلَامِ الْعَرَبِ، وَجَزَمَ بِذَلِكَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي بَعْضِ مَوَاضِعِهِ فِي الْقُرْآنِ، وَعَلَيْهِ فَلَا حَاجَةَ إِلَى التَّأْوِيلِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ فِي الْخُلَاصَةِ:

وَلَا يُضَافُ اسْمٌ لِمَا بِهِ اتَّحَدَ ... مَعْنَى وَأَوَّلُ مُوَهَّمًا إِذَا وَرَدَ

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى ضَعْفِ التَّأْوِيلِ الْمَذْكُورِ قَوْلُهُ:

وَإِنْ يَكُونَا مُفْرَدَيْنِ فَأُضِيفَ ... حَتْمًا وَإِلَّا أَتْبَعَ الَّذِي رَدَفَ

لِأَنَّ إِيجَابَ إِضَافَةِ الْعَلَمِ إِلَى اللَّقَبِ مَعَ اتِّحَادِهِمَا فِي الْمَعْنَى إِنْ كَانَا مُفْرَدَيْنِ الْمُسْتَلْزِمُ لِلتَّأْوِيلِ، وَمَنْعُ الْإِتْبَاعِ الَّذِي لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَأْوِيلٍ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَسَالِيِبِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَسَالِيِبِهَا لَوَجِبَ تَقْدِيمُ مَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَأْوِيلٍ عَلَى الْمُحْتَاجِ إِلَى تَأْوِيلٍ كَمَا تَرَى. وَعَلَى هَذَا الْوَجْهِ مِنَ التَّفْسِيرِ فَالْمَعْنَى: فَمَحَوْنَا الْآيَةَ الَّتِي هِيَ اللَّيْلُ، وَجَعَلْنَا الْآيَةَ الَّتِي هِيَ النَّهَارُ مُبْصَرَةً، أَيْ: جَعَلْنَا اللَّيْلَ مَمْحُورَ الضَّوِّ مَطْمُوسَهُ، مُظْلِمًا لَا تُسْتَبَانُ فِيهِ الْأَشْيَاءُ كَمَا لَا يُسْتَبَانُ مَا فِي اللَّوْحِ الْمَمْحُورِ، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مُبْصَرًا، أَيْ تُبْصَرُ فِيهِ الْأَشْيَاءُ وَتُسْتَبَانُ.

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٤٣٨/٢

وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا [١٧ \ ١٢] تَقَدَّمَ إِيضَاحُهُ، وَالْآيَاتُ الدَّالَّةُ عَلَيْهِ فِي سُورَةِ «النَّحْلِ» فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: وَنَزَّلْنَا. (١)

"بِجَنَائَةِ إِنْسَانٍ آخَرَ؟

وَالْجَوَابُ عَنِ الْأَوَّلِ: هُوَ أَنَّ الْعُلَمَاءَ حَمَلُوهُ عَلَى أَحَدِ أَمْرَيْنِ:

الأَوَّلُ: أَنَّ يَكُونَ الْمَيِّتُ أَوْصَى بِالنُّوحِ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ طَرَفَةُ بْنُ الْعَبْدِ فِي **مُعَلَّقَتِهِ**:

إِذَا مِتُّ فَأَنْعِنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ ... وَشَقِيَّ عَلَى الْجَنْبِ يَابَنَةَ مَعْبِدٍ

لَأَنَّهُ إِذَا كَانَ أَوْصَى بِأَنْ يُنَاحَ عَلَيْهِ: فَتَعَذُّيْهُ بِسَبَبِ إِيْصَائِهِ بِالْمُنْكَرِ، وَذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِ لَا فِعْلٍ غَيْرِهِ.

الثَّانِي: أَنَّ يَهْمَلَ نَهْيَهُمْ عَنِ النُّوحِ عَلَيْهِ قَبْلَ مَوْتِهِ مَعَ أَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ سَيُنُوْحُونَ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّ إِهْمَالَ نَهْيِهِمْ تَفْرِيطٌ مِنْهُ، وَمُخَالَفَةٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا [٦٦ \ ٦٦] فَتَعَذُّيْهُ إِذَا بِسَبَبِ تَفْرِيطِهِ، وَتَرْكِهِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ قَوْلِهِ: قُوا أَنْفُسَكُمْ الْآيَةَ، وَهَذَا ظَاهِرٌ كَمَا تَرَى.

وَعَنِ الثَّانِي: بِأَنَّ إِيجَابَ الدِّيَةِ عَلَى الْعَاقِلَةِ لَيْسَ مِنْ تَحْمِيلِهِمْ وَزَرَ الْقَاتِلِ، وَلَكِنَّهَا مُوَاسَاةٌ مُحَضَّةٌ أُوجِبَهَا اللَّهُ عَلَى عَاقِلَةِ الْجَانِي ؛ لِأَنَّ الْجَانِيَّ لَمْ يَقْصِدْ سُوءًا، وَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ الْبَتَّةُ فَأُوجِبَ اللَّهُ فِي جَنَائَتِهِ خَطَأً الدِّيَةَ بِخِطَابِ الْوَضْعِ، وَأُوجِبَ الْمُوَاسَاةُ فِيهَا عَلَى الْعَاقِلَةِ، وَلَا إِشْكَالَ فِي إِيجَابِ اللَّهِ عَلَى بَعْضِ خَلْقِهِ مُوَاسَاةَ بَعْضِ خَلْقِهِ، كَمَا أُوجِبَ أَخْذُ الرِّكَاتِ مِنْ مَالِ الْأَغْنِيَاءِ وَرَدُّهَا إِلَى الْفُقَرَاءِ، وَاعْتَقَدَ مَنْ أُوجِبَ الدِّيَةُ عَلَى أَهْلِ دِيَوَانِ الْقَاتِلِ خَطَأً أَكَّابِي حَنِيفَةً وَغَيْرِهَا أَنَّهَا بِاعْتِبَارِ النُّصْرَةِ فَأُوجِبَهَا عَلَى أَهْلِ الدِّيَوَانِ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْقَوْلَ مَا ذَكَرَهُ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ، قَالَ: " وَأَجْمَعَ أَهْلُ السِّيَرِ وَالْعِلْمِ: أَنَّ الدِّيَةَ كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَحْمِيلًا الْعَاقِلَةَ، فَأَقْرَبَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْإِسْلَامِ، وَكَانُوا يَتَعَاقَلُونَ بِالنُّصْرَةِ ثُمَّ جَاءَ الْإِسْلَامُ فَجَرَى الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ. حَتَّى جَعَلَ عُمَرُ الدِّيَوَانَ.

وَاتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى رَوَايَةِ ذَلِكَ وَالْقَوْلُ بِهِ، وَأَجْمَعُوا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا زَمَنِ أَبِي بَكْرٍ دِيَوَانٌ، وَأَنَّ عُمَرَ جَعَلَ الدِّيَوَانَ، وَجَمَعَ بَيْنَ النَّاسِ، وَجَعَلَ أَهْلَ كُلِّ نَاحِيَةٍ يَدًا، وَجَعَلَ عَلَيْهِمْ قِتَالَ مَنْ يَلِيهِمْ مِنَ الْعَدُوِّ. انْتَهَى كَلَامُ الْقُرْطُبِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا

ظَاهِرٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ. حَتَّى

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٥٩/٣

يَبْعَثُ إِلَيْهِ رَسُولًا يُنذِرُهُ وَيُحَذِّرُهُ، فَيُعْصِي ذَلِكَ الرَّسُولَ، وَيُسْتَمِرُّ عَلَى الْكُفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ بَعْدَ الْإِنْذَارِ وَالْإِعْذَارِ.
وَقَدْ أَوْضَحَ جَلَّ وَعَلَا هَذَا الْمَعْنَى فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: رُسُلًا مُبَشِّرِينَ. (١)

"وَسَبَبُ هَذَا الْمَثَلِ: أَنَّهُ زَارَ حَارِثَةَ بِنَ لَأَمِ الطَّائِيَّ فَوَجَدَهُ غَائِبًا، فَأَنْزَلَتْهُ أُخْتُهُ وَأَكْرَمَتْهُ، وَكَانَتْ جَمِيلَةً، فَأَعْجَبَهُ جَمَالُهَا، فَقَالَ مُحَاطِبًا لِأُخْرَى غَيْرَهَا لِيَسْمِعَهَا هِيَ:
يَا أُخْتِ خَيْرِ الْبَدْوِ وَالْحَضَارَةِ ... كَيْفَ تَرَيْنَ فِي فَتَى فَزَارَةٍ
أَصْبَحَ يَهْوَى حُرَّةً مِعْطَارَةً ... إِيَّاكَ أَعْنِي وَاسْمِعِي يَا جَارَةَ
فَفَهِمَتِ الْمَرْأَةُ مُرَادَهُ، وَأَجَابَتْهُ بِقَوْلِهَا:

إِنِّي أَقُولُ يَا فَتَى فَزَارَةٍ ... لَا أَبْتَغِي الزَّوْجَ وَلَا الدَّعَارَةَ
وَلَا فِرَاقَ أَهْلِ هَذِي الْحَارَةِ ... فَأَرْحَلُ إِلَى أَهْلِكَ بِاسْتِحَارَةٍ
وَالظَّاهِرُ أَنَّ قَوْلَهَا «بِاسْتِحَارَةٍ» أَنَّ أَصْلَهُ اسْتِغْعَالٌ مِنَ الْمُحَاوَرَةِ بِمَعْنَى رَجْعِ الْكَلَامِ بَيْنَهُمَا، أَيْ اِرْحَلْ إِلَى
أَهْلِكَ بِالْمُحَاوَرَةِ الَّتِي وَقَعَتْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَهِيَ كَلَامُكَ وَجَوَابِي لَهُ، وَلَا تَحْصُلُ مِنِّي عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ! وَالْهَاءُ
فِي «الِاسْتِحَارَةِ» عَوْضٌ مِنَ الْعَيْنِ السَّاقِطَةِ بِالْإِعْلَالِ، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي فَنِّ الصَّرْفِ.

وَدَهَبَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى أَنَّ الْخِطَابَ فِي قَوْلِهِ: لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ
مُتَوَجِّهَةٌ إِلَى الْمُكَلَّفِ، وَمِنْ أَسَالِيبِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ: إِفْرَادُ الْخِطَابِ مَعَ قَصْدِ التَّعْمِيمِ؛ كَقَوْلِ طَرْفَةَ بِنِ الْعَبْدِ فِي

مُعَلَّقَتِهِ:

سَبْدِي لَكَ الْيَّامُ مَا كُنْتُ جَاهِلًا ... وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ
وَقَالَ الْفَرَّاءُ، وَالْكِسَائِيُّ، وَالزَّمَخْشَرِيُّ: وَمَعْنَى قَوْلِهِ: فَتَقْعُدَ [١٧ \ ٢٢] أَيُّ: تَصِيرُ. وَجَعَلَ الْفَرَّاءُ مِنْهُ قَوْلَ
الرَّاجِزِ:

لَا يُفْنِعُ الْجَارِيَةَ الْخِضَابُ ... وَلَا الْوَشَاحَانِ وَلَا الْجِلْبَابُ
مَنْ دُونَ أَنْ تَلْتَقِيَ الْأَرْكَابُ ... وَيَقْعُدَ الْأَيُّرُ لَهُ لُعَابُ
أَيُّ يَصِيرُ لَهُ لُعَابُ.

وَحَكَى الْكِسَائِيُّ: قَعَدَ لَا يُسْأَلُ حَاجَةً إِلَّا قَضَاهَا. بِمَعْنَى صَارَ. قَالَهُ أَبُو حَيَّانَ فِي الْبَحْرِ.
ثُمَّ قَالَ أَيْضًا: وَالْقُعُودُ هُنَا عِبَارَةٌ عَنِ الْمُكْثِ، أَيُّ فَتَمَكُّثُ فِي النَّاسِ مَذْمُومًا مَخْذُولًا، كَمَا تَقُولُ لِمَنْ سَأَلَ

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٦٥/٣

عَنْ حَالِ شَخْصٍ: هُوَ قَاعِدٌ فِي أَسْوَأِ حَالٍ ؛ وَمَعْنَاهُ مَآكِثٌ وَمُقِيمٌ. سَوَاءٌ كَانَ قَائِمًا أَمْ جَالِسًا. وَقَدْ يُرَادُ
الْفُجُودُ حَقِيقَةً ؛ لِأَنَّ مِنْ شَأْنِ الْمَذْمُومِ. " (١)

"وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِهِ: وَيُؤَيِّدُ الْقَوْلَ الْأَوَّلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، فَإِنَّ صَرْفَ
الشَّمْسِ عَنْهُمْ مَعَ تَوَجُّهِ الْفُجُودِ إِلَى مَكَانٍ تَصِلُ إِلَيْهِ عَادَةً، أَنْسَبُ بِمَعْنَى كَوْنِهَا آيَةً، وَيُؤَيِّدُهُ أَيْضًا إِطْلَاقُ
الْفُجُودِ وَعَدَمُ تَقْيِيدِهَا بِكَوْنِهَا إِلَى جِهَةٍ كَذَا، وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْفُجُودَ الْمَكَانُ الْوَاسِعُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:
أَلْبَسْتَ قَوْمَكَ مَحْزَرَةً وَمَنْقَصَةً ... حَتَّى أُبَيِّحُوا وَحَلُّوا فَجُودَ الدَّارِ
انْتَهَى كَلَامُ الشُّوْكَانِيِّ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْفُجُودَ: هِيَ الْمُسْعُ. وَهُوَ مَعْرُوفٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ وَمِنْهُ الْبَيْتُ الْمَذْكُورُ، وَقَوْلُ الْآخَرِ:
وَنَحْنُ مَلَأْنَا كُلَّ وَادٍ وَفُجُودٍ ... رِجَالًا وَخَيْلًا غَيْرَ مِيلٍ وَلَا عَزْلٍ
وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: «فَإِذَا وَجَدَ فَجُودٌ نَصًّا» .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: وَتَرَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ، أَيُّ تَرَى أَيُّهَا الْمُخَاطَبُ الشَّمْسُ عِنْدَ طُلُوعِهَا
تَمِيلُ عَلَى كَهْفِهِمْ، وَالْمَعْنَى: أَنَّكَ لَوْ رَأَيْتَهُمْ لَرَأَيْتَهُمْ كَذَلِكَ، لَا أَنَّ الْمُخَاطَبَ رَأَاهُمْ بِالْفِعْلِ، كَمَا يَدُلُّ لِهَذَا
الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى: لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا الْآيَةَ [١٨ \ ١٨] ، وَالْخِطَابُ بِمِثْلِ هَذَا مَشْهُورٌ
فِي لُغَةِ الْعَرَبِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا هَذَا الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ، وَأَصْلُ مَادَّةِ التَّرَاوُرِ: الْمَيْلُ، فَمَعْنَى «تَرَاوُرٌ»: تَمِيلُ. وَالتَّرَاوُرُ:
الْمَيْلُ، وَمِنْهُ شَهَادَةُ التَّرَاوُرِ، لِأَنَّهَا مَيْلٌ عَنْ الْحَقِّ. وَمِنْهُ الرِّيَاةُ ؛ لِأَنَّ الرَّاكِبَ يَمِيلُ إِلَى الْمَرْوَرِ، وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى
قَوْلُ عَنَتَرَةَ فِي **مُعَلَّقَتِهِ**:

فَارَوُرٌ مِنْ وَقَعِ الْقَنَا بِلَبَانِهِ ... وَشَكَا إِلَيَّ بِعَبْرَةٍ وَتَحْمَحُمِ
وَقَوْلُ عُمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ:

وَحُقِّضَ عَنِّي الصَّوْتُ أَقْبَلْتُ مِشْيَةَ الْ... حُبَابٍ وَشَخْصِي حَشِيَّةَ الْحَيِّ أَرْوُرُ
وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ذَاتَ الْيَمِينِ أَيُّ جِهَةِ الْيَمِينِ، وَحَقِيقَتُهَا الْجِهَةُ الْمُسَمَّاةُ بِالْيَمِينِ. وَقَالَ
أَبُو حَيَّانَ فِي الْبَحْرِ: وَذَاتُ الْيَمِينِ: جِهَةُ يَمِينِ الْكَهْفِ، وَحَقِيقَتُهَا الْجِهَةُ الْمُسَمَّاةُ بِالْيَمِينِ، يَعْنِي يَمِينَ
الدَّخْلِ إِلَى الْكَهْفِ، أَوْ يَمِينِ الْفَتْنَةِ. اهـ، وَهُوَ مَنْصُوبٌ عَلَى الظَّرْفِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّرُضُهُمْ، مِنَ الْقَرْضِ بِمَعْنَى الْقَطِيعَةِ وَالصَّرْمِ ؛ أَيُّ. " (٢)

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٨٤/٣

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٢٢٠/٣

"ظَهَرَهُ. مِنْ قَوْلِهِمْ: فَرَسَ فُرْطًا، أَيْ: مُتَقَدِّمًا لِلْحَيْلِ، وَمِنْهُ قَوْلُ لَبِيدٍ فِي **مُعَلَّقَتِهِ**:

وَلَقَدْ حَمَيْتُ الْحَيْلَ تَحْمِلُ شَكَّتِي ... فُرْطٌ وَشَاحِي إِذْ عَدَوْتُ لِحَامَهَا
وَالِي مَا ذَكَّرْنَا فِي مَعْنَى الْآيَةِ تَرْجِعُ أَقْوَالَ الْمُفَسِّرِينَ كُلُّهَا، كَقَوْلِ قَتَادَةَ وَمُجَاهِدٍ «فُرْطًا» أَيْ: ضِيَاعًا. وَكَقَوْلِ
مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ «فُرْطًا» أَيْ: سَرَفًا، كَقَوْلِ الْفَرَّاءِ «فُرْطًا» أَيْ: مَتْرُوكًا. وَكَقَوْلِ الْأَخْفَشِ «فُرْطًا» أَيْ: مُجَاوِزًا
لِلْحَدِّ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ.

أَمَرَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ: الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ، وَفِي
إِعْرَابِهِ وَجْهَانِ، أَحَدُهُمَا: أَنَّ «الْحَقَّ» مُبْتَدَأٌ، وَالْجَارُ وَالْمَجْرُورُ حَبْرُهُ، أَيْ: الْحَقُّ الَّذِي جِئْتُكُمْ بِهِ فِي هَذَا
الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، الْمُتَضَمِّنِ لِدِينِ الْإِسْلَامِ كَائِنْ مَبْدُؤُهُ مِنْ رَبِّكُمْ جَلَّ وَعَلَا، فَلَيْسَ مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ، وَلَا مِنْ
افْتِرَاءِ الْكُهَنَةِ، وَلَا مِنْ أَسَاطِيرِ الْأَوَّلِينَ، وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ. بَلْ هُوَ مِنْ خَالِقِكُمْ جَلَّ وَعَلَا، الَّذِي تَلَزُمُكُمْ طَاعَتُهُ
وَتَوْحِيدُهُ، وَلَا يَأْتِي مِنْ لَدُنْهُ إِلَّا الْحَقُّ الشَّامِلُ لِلصِّدْقِ فِي الْأَخْبَارِ، وَالْعَدْلُ فِي الْأَحْكَامِ، فَلَا حَقَّ إِلَّا مِنْهُ
جَلَّ وَعَلَا.

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّهُ حَبْرٌ مُبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ، أَيْ: هَذَا الَّذِي جِئْتُكُمْ بِهِ الْحَقُّ.

وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ذَكَرَهُ أَيْضًا فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ، كَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ «الْبَقَرَةِ»:
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ [٢ \ ١٤٧] ، وَقَوْلِهِ فِي «آلِ عِمْرَانَ»: الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ
مِنَ الْمُمْتَرِينَ [٣ \ ٦٠] ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ،
ظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِحَسَبِ الْوَضْعِ اللَّغَوِيِّ التَّخْيِيرِ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ وَلَكِنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ
لَيْسَ هُوَ التَّخْيِيرُ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِهَا التَّهْدِيدُ وَالتَّخْوِيفُ. وَالتَّهْدِيدُ بِمِثْلِ هَذِهِ الصِّبْغَةِ الَّتِي ظَاهِرُهَا التَّخْيِيرُ
أُسْلُوبٌ مِنْ أَسَالِيبِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَالِدَّلِيلُ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ فِي الْآيَةِ التَّهْدِيدُ وَالتَّخْوِيفُ أَنَّهُ
أَتْبَعَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ
بُئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا، وَهَذَا أَصْرَحُ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ التَّهْدِيدُ وَالتَّخْوِيفُ، إِذْ لَوْ كَانَ التَّخْيِيرُ عَلَى
بَابِهِ لَمَا تَوَعَّدَ فَاعِلٌ أَحَدَ الطَّرَفَيْنِ الْمُخَيَّرَ بَيْنَهُمَا بِهَذَا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ، وَهَذَا وَاضِحٌ كَمَا تَرَى.

وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَعْتَدْنَا [١٨ \ ٢٩] ، أَصْلُهُ مِنَ الْإِعْتَادِ، وَالتَّاءُ فِيهِ. (١)

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٢٦٦/٣

"أَنَا سَيْفُ الْعَشِيرَةِ فَأَعْرِفُونِي ... حَمِيدًا قَدْ تَذَرَيْتُ السَّنَامَا

وَقَوْلُ الْأَعَشَى:

فَكَيْفَ أَنَا وَانْتِحَالُ الْقَوَافِي ... بَعْدَ الْمَشِيبِ كَفَى ذَاكَ عَارًا

وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: وَهُوَ يُحَاوِرُهُ جُمْلَةً حَالِيَّةً، وَالْمُحَاوَرَةُ: الْمُرَاجَعَةُ فِي الْكَلَامِ: وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا [٥٨ \ ١] ، وَقَوْلُ عُنْتَرَةَ فِي **مُعَلَّقَتِهِ**:

لَوْ كَانَ يَدْرِي مَا الْمُحَاوَرَةُ اشْتَكَى ... وَلَكَانَ لَوْ عَلِمَ الْجَوَابُ مُكَلِّمِي

وَكَلَامُ الْمُفَسِّرِينَ فِي الرَّجُلَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ هُنَا فِي قِصَّتَيْهِمَا كَبَيَانَ أَسْمَائِهِمَا، وَمِنْ أَيِّ النَّاسِ هُمَا أَعْرَضْنَا عَنْهُ. لِمَا ذَكَرْنَا سَابِقًا مِنْ عَدَمِ الْفَائِدَةِ فِيهِ، وَعَدَمِ الدَّلِيلِ الْمُفْنِعِ عَلَيْهِ. وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا.

مَعْنَى قَوْلِهِ: «غَوْرًا» أَيُّ: غَائِرًا ؛ فَهُوَ مِنَ الْوَصْفِ بِالْمَصْدَرِ ؛ كَمَا قَالَ فِي الْخُلَاصَةِ:

وَنَعَتُوا بِمَصْدَرٍ كَثِيرًا فَالْتَزَمُوا الْإِفْرَادَ وَالتَّذْكِيرَ وَالْعَائِرُ: ضِدُّ النَّابِغِ، وَقَوْلُهُ: فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا [١٨ \ ٤١] ؛ لِأَنَّ اللَّهَ إِذَا أَعْدَمَ مَاءَهَا بَعْدَ وُجُودِهِ، لَا تَجِدُ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَأْتِيكَ بِهِ غَيْرُهُ جَلَّ وَعَلَا. وَأَشَارَ إِلَى نَحْوِ هَذَا الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِهِ مَعِينٍ [٦٧ \ ٣٠] ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْجَوَابَ الصَّحِيحَ: لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَأْتِيَنَا بِهِ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ ؛ كَمَا قَالَ هُنَا: فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا [١٨ \ ٤١] .

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا.

اعْلَمْ أَنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: قِرَاءَاتٌ سَبْعِيَّةٌ، وَأَقْوَالًا لِعُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ، بَعْضُهَا يَشْهَدُ لَهُ قُرْآنٌ، وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي تَرْجَمَةِ هَذَا الْكِتَابِ الْمُبَارَكِ أَنَّ الْآيَةَ قَدْ تَكُونُ فِيهَا مَذَاهِبُ الْعُلَمَاءِ، يَشْهَدُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا قُرْآنٌ، فَندْكُرُ الْجَمِيعَ وَأَدِلُّنَّهُ فِي الْقُرْآنِ. فَإِذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ قَوْلَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ [١٨ \ ٤٣]

، قَرَأَهُ السَّبْعَةُ مَا عَدَا حَمْزَةَ وَالْكَسَائِيَّ بِالتَّاءِ الْمُثَنَّاةِ الْفَوْقِيَّةِ، وَقَرَأَهُ حَمْزَةُ وَالْكَسَائِيَّ: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ» بِالْيَاءِ الْمُثَنَّاةِ التَّحْتِيَّةِ، وَقَوْلُهُ: الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ [١٨ \ ٤٤] ، قَرَأَهُ السَّبْعَةُ. " (١)

"وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ [٦ \ ٣٨] .

وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: فَلَمْ يُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا [١٨ \ ٤٧] ، أَيُّ: لَمْ نَتْرُكْ، وَالْمُعَادَرَةُ: التَّرُكُ، وَمِنْهُ الْعُدْرُ ؛ لِأَنَّهُ تَرَكَ الْوَفَاءَ وَالْأَمَانَةَ، وَسَمَّى الْعَدِيرَ مِنَ الْمَاءِ عَدِيرًا ؛ لِأَنَّ السَّيْلَ ذَهَبَ وَتَرَكَهُ، وَمِنْ الْمُعَادَرَةِ بِمَعْنَى التَّرُكِ قَوْلُ عَنَتَرَةَ فِي مَطْلَعٍ مُعَلَّقَتِهِ:

هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتَرَدِّمٍ ... أَمْ هَلْ عَرَفَتِ الدَّارُ بَعْدَ تَوَهُمٍ
وَقَوْلُهُ أَيْضًا:

غَادَرْتُهُ مُتَعَفِّرًا أَوْصَالُهُ ... وَالْقَوْمُ بَيْنَ مُجَرَّحٍ وَمُجَدَّلٍ
وَمَا ذَكَرَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنْ أَنَّهُ حَشَرَهُمْ وَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُمْ أَحَدًا جَاءَ مُبَيَّنًا فِي مَوَاضِعٍ أُخَرٍ، كَقَوْلِهِ:
وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا الْآيَةَ [٦ \ ٢٢] ، وَنَحْوَهَا مِنَ الْآيَاتِ ؛ لِأَنَّ حَشَرَهُمْ جَمِيعًا هُوَ مَعْنَى أَنَّهُ لَمْ يُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَعَرِّضُوا عَلَى رَبِّكَ.

ذَكَرَ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعَرِّضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ صَفًّا، أَيُّ: فِي حَالِ كَوْنِهِمْ مُصْطَفَيْنَ، قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: صَفًّا بَعْدَ صَفٍّ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: صَفًّا وَاحِدًا وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ «صَفًّا» أَيُّ: جَمِيعًا، كَقَوْلِهِ: ثُمَّ انْتَوَا صَفًّا [٢٠ \ ٦٤] ، عَلَى الْقَوْلِ فِيهِ بِذَلِكَ، وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: وَخَرَجَ الْحَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مِنْدَةَ فِي كِتَابِ التَّوْحِيدِ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُنَادِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَوْتٍ رَفِيعٍ غَيْرِ فَطِيعٍ: يَا عِبَادِي، أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ وَأَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ وَأَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ، يَا عِبَادِي، لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ، أَحْضَرُوا حُجَّتَكُمْ وَيَسِّرُوا جَوَابًا فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ مُحَاسَبُونَ. يَا مَلَائِكَتِي، أَقِيمُوا عِبَادِي صُفُوفًا عَلَى أَطْرَافِ أُنَامِلٍ أَقْدَامِهِمْ لِلْحِسَابِ» ، قُلْتُ: هَذَا الْحَدِيثُ غَايَةٌ فِي الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ، وَلَمْ يَذْكُرْهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ، وَقَدْ كَتَبْنَاهُ فِي كِتَابِ التَّذَكُّرَةِ وَمِنْهُ نَقَلْنَاهُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٢٧٨/٣

انْتَهَى كَلَامُ الْفَرُطِيِّ، وَالْحَدِيثُ الْمَذْكُورُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ «صَفًّا» فِي هَذِهِ الْآيَةِ يُرَادُ بِهِ صُفُوفًا، كَقَوْلِهِ فِي الْمَلَائِكَةِ: وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا [٨٩ \ ٢٢] ، وَنَظِيرُ الْآيَةِ قَوْلُهُ فِي الْمَلَائِكَةِ: يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا [٧٨ \ ٣٨ - ٣٩] .

فَإِذَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ حَالًا مِنْ أَحْوَالِ عَرْضِ. " (١)

"قَوْلِهِ: وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ الْآيَةَ [١٨ \ ٤٩] ، وَالْمُجْرِمُونَ: جَمْعُ الْمُجْرِمِ، وَهُوَ اسْمُ فَاعِلٍ الْإِجْرَامِ. وَالْإِجْرَامُ: ارتكابُ الجريمةِ، وَهِيَ الذَّنْبُ الْعَظِيمُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ صَاحِبُهُ عَلَيْهِ النَّكَالَ، وَمَعْنَى كَوْنِهِمْ «مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ»: أَنَّهُمْ خَائِفُونَ مِمَّا فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ مِنْ كَشْفِ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ، وَفَضِيحَتِهِمْ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ، وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْعَذَابِ السَّوْمِيِّ، وَقَوْلُهُمْ يَا وَيْلَتَنَا الْوَيْلَةُ: الْهَلَكَةُ، وَقَدْ نَادَوْا هَلَكْتُمْ الَّتِي هَلَكُوهَا خَاصَّةٌ مِنْ بَيْنِ الْهَلَكَاتِ فَقَالُوا: يَا وَيْلَتَنَا! أَيُّ: يَا هَلَكْتَنَا اخْضُرِّي فَهَذَا أَوَانُ خُضُورِكَ! وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ فِي الْبَحْرِ: الُمُرَادُ مَنْ بِحَضْرَتِهِمْ: كَأَنَّهُمْ قَالُوا: يَا مَنْ بِحَضْرَتِنَا انْظُرُوا هَلَكْتَنَا. وَكَذَا مَا جَاءَ مِنْ نِدَاءٍ مَا لَا يَعْقِلُ كَقَوْلِهِ: يَا أَسَفًا عَلَى يُوسُفَ [١٢ \ ٨٤] ، يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ [٣٩ \ ٥٦] ، يَا وَيْلَتَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا [٣٦ \ ٥٢] ، وَقَوْلِهِ: يَا عَجَبًا لِهَذِهِ الْفُلَيْقَةِ، فَيَا عَجَبًا مِنْ رَحْلِهَا الْمُتَحَمِّلِ، إِنَّمَا يُرَادُ بِهِ تَنْبِيهُ مَنْ يَعْقِلُ بِالتَّعَجُّبِ مِمَّا حَلَّ بِالنَّادَى انْتَهَى كَلَامُ أَبِي حَيَّانَ. وَحَاصِلُ مَا ذَكَرَهُ: أَنَّ أَدَاةَ النِّدَاءِ فِي قَوْلِهِ «يَا وَيْلَتَنَا» يُنَادَى بِهَا مَحْذُوفٌ، وَأَنَّ مَا بَعْدَهَا مَفْعُولٌ فِعْلٍ مَحْذُوفٍ، وَالتَّقْدِيرُ كَمَا ذَكَرَهُ: يَا مَنْ بِحَضْرَتِنَا انْظُرُوا هَلَكْتَنَا، وَمَعْلُومٌ أَنَّ حَذْفَ الْمُنَادَى مَعَ إِثْبَاتِ أَدَاةِ النِّدَاءِ، وَدَلَالَةِ الْقَرِينَةِ عَلَى الْمُنَادَى الْمَحْذُوفِ مَسْمُوعٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ. وَمِنْهُ قَوْلُ عَنَتَرَةَ فِي مُعَلَّقَتِهِ:

يَا شَاةَ مَا قَنَصٍ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ ... حُرْمَتٌ عَلَى وَلَيْتَهَا لَمْ تَحْرُمِ

يَعْنِي: يَا قَوْمُ انْظُرُوا شَاةَ قَنَصٍ، وَقَوْلُ ذِي الرُّمَّةِ:

أَلَا يَا اسْلَمِي يَا دَارَ مَيِّ عَلَى الْبَلَا ... وَلَا زَالَ مُنْهَلًا بِجَرَعَائِكَ الْقَطْرُ

يَعْنِي: يَا هَذِهِ اسْلَمِي.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: مَالِ هَذَا الْكِتَابِ [١٨ \ ٤٩] أَيُّ شَيْءٍ نَبَتْ لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُعَادِرُ أَيُّ: لَا يَتْرُكُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً أَيُّ: مِنَ الْمَعَاصِي، وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: الصَّغِيرَةُ الْقُبْلَةُ، وَالْكَبِيرَةُ الرِّثَا، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ فِي الْآيَةِ إِنَّمَا هُوَ عَلَى سَبِيلِ التَّمْثِيلِ لَا عَلَى سَبِيلِ الْحَصْرِ، وَلِلْعُلَمَاءِ اخْتِلَافٌ كَثِيرٌ فِي تَعْرِيفِ الْكَبِيرَةِ مَعْرُوفٌ فِي الْأُصُولِ. وَقَدْ صَرَّحَ تَعَالَى بِأَنَّ الْمُنْهَيَّاتِ مِنْهَا كِبَائِرٌ، وَيُفْهَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ مِنْهَا صَغَائِرٌ، وَبَيَّنَّ أَنَّ اجْتِنَابَ

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٢٨٤/٣

الْكَبَائِرِ يَكْفِرُ اللَّهُ بِهِ الصَّغَائِرَ ؛ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: إِنَّ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَالْآيَةِ [٤ \ ٣١] ، وَيُرْوَى عَنِ الْفَضِيلِ بْنِ عِيَّاضٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ: " (١)

"عِمْرَانُ» : قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ [٣ \ ٤١] ؛ لِأَنَّ الرَّمْزَ: الْإِشَارَةَ وَالْإِيمَاءَ بِالشَّفَتَيْنِ وَالْحَاجِبِ، وَالْإِيحَاءِ فِي قَوْلِهِ: فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا الْآيَةَ، قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: هُوَ الْإِشَارَةُ وَهُوَ الْأَظْهَرُ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ «إِلَّا رَمَزًا» كَمَا تَقَدَّمَ آنِفًا، وَمِمَّنْ قَالَ بِأَنَّ الْوَحْيَ فِي الْآيَةِ الْإِشَارَةُ: قَتَادَةُ، وَالْكَلْبِيُّ، وَابْنُ مُنَبِّهٍ، وَالْعُتْبِيُّ، كَمَا نَقَلَهُ عَنْهُمْ الْفَرُطِيُّ وَغَيْرُهُ، وَعَنْ مُجَاهِدٍ، وَالسُّدِّيِّ «فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ» ، أَي: كَتَبَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ، وَعَنْ عِكْرِمَةَ: كَتَبَ لَهُمْ فِي كِتَابٍ، وَالْوَحْيُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ يُطْلَقُ عَلَى كُلِّ الْفَاءِ فِي سُرْعَةٍ وَخَفَاءٍ، وَلِذَلِكَ أَطْلَقَ عَلَى الْإِلْهَامِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ الْآيَةَ [١٦ \ ٦٨] ، وَعَلَى الْإِشَارَةِ كَمَا هُوَ الظَّاهِرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا الْآيَةَ [١٩ \ ١١] ، وَيُطْلَقُ عَلَى الْكِتَابَةِ كَمَا هُوَ الْقَوْلُ الْآخَرُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، وَإِطْلَاقُ الْوَحْيِ عَلَى الْكِتَابَةِ مَشْهُورٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، وَمِنْهُ قَوْلُ لَبِيدِ بْنِ رَبِيعَةَ فِي مُعَلَّقَتِهِ:

فَمَدَافِعُ الرِّبَّانِ عَرِيَّ رَسْمُهَا ... خَلَقًا كَمَا ضَمِنَ الْوَحْيُ سِلَاقُهَا
فَقَوْلُهُ «الْوَحْيُ» بِضَمِّ الْوَاوِ وَكَسْرِ الْحَاءِ وَتَشْدِيدِ الْيَاءِ، جَمْعُ وَحْيٍ بِمَعْنَى الْكِتَابَةِ.
وَقَوْلُ عَنَتَرَةَ:

كَوَحْيِ صَحَائِفَ مِنْ عَهْدِ كِسْرَى ... فَأَهْدَاهَا لِأَعْجَمِ طَنْطَمِي
وَقَوْلُ ذِي الرُّمَّةِ:
سِوَى الْأَرْبَعِ الدُّهُمِ اللَّوَاتِي كَانَتْهَا ... بَقِيَّةُ وَحْيِي فِي وَنِّ الصَّحَائِفِ
وَقَوْلُ جَرِيرٍ:
كَأَنَّ أَحَا الْكِتَابِ يَخْطُ وَحْيًا ... بِكَافٍ فِي مَنَازِلِهَا وَلَامٍ

قَوْلُهُ تَعَالَى: فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا.
ذَكَرَ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ زَكْرِيَّا خَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ، أَوْ كَتَبَ لَهُمْ: أَنْ سَبِّحُوا اللَّهَ أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ، فَالْبُكْرَةُ أَوَّلُ النَّهَارِ، وَالْعَشِيُّ آخِرُهُ، وَقَدْ بَيَّنَّ تَعَالَى فِي «آلِ عِمْرَانَ» أَنَّ هَذَا الَّذِي أَمَرَ بِهِ زَكْرِيَّا قَوْمَهُ بِالْإِشَارَةِ أَوْ الْكِتَابَةِ مِنَ التَّسْبِيحِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ زَكْرِيَّا بِهِ أَيْضًا، وَذَلِكَ فِي

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٢٨٨/٣

قَوْلِهِ: وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ [٣ \ ٤١] ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا الْمِحْرَابَ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ عَلَى قَوْمِهِ هُوَ الْمِحْرَابُ الَّذِي بُشِّرَ بِالْوَلَدِ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِيهِ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: " (١) قَبْلَهَا، فَالِنِدَاءُ الْمَذْكُورُ قَبْلَهَا هُوَ: لَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتِكَ سَرِيًّا.

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْمُرَادِ بِالسَّرِيِّ هُنَا، فَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: هُوَ الْجَدُولُ وَهُوَ النَّهْرُ الصَّغِيرُ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَجْرَى لَهَا تَحْتَهَا نَهْرًا، وَعَلَيْهِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: فَكُلِّي أَيُّ: مِنَ الرُّطْبِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ: تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا [١٩ \ ٢٥] ، وَاشْرَبِي [١٩ \ ٢٦] ، أَيُّ: مِنَ النَّهْرِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ: قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتِكَ سَرِيًّا، وَإِطْلَاقُ السَّرِيِّ عَلَى الْجَدُولِ مَشْهُورٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، وَمِنْهُ قَوْلُ لَبِيدٍ فِي **مُعَلَّقَتِهِ**:

فَتَوَسَّطًا غُرْضَ السَّرِيِّ وَصَدَّعَا ... مَسْجُورَةً مُتَجَاوِرًا فُلَامُهَا
وَقَوْلُ لَبِيدٍ أَيْضًا يَصِفُ نَحْلًا نَابِتًا عَلَى مَاءِ النَّهْرِ:
سُحْقُ يُمَتِّعُهَا الصِّفَا وَسَرِيَّهُ ... عُمُ نَوَاعِمَ بَيْنَهُنَّ كُرُومُ
وَقَوْلُ الْآخَرِ:.

سَهْلُ الْخَلِيقَةِ مَا جَدُّ ذُو نَائِلٍ ... مِثْلُ السَّرِيِّ تَمُدُّهُ الْأَنْهَارُ
فَقَوْلُهُ «سَرِيًّا» ، وَقَوْلُهُمَا «السَّرِيُّ» بِمَعْنَى الْجَدُولِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُ الرَّاجِزِ:

سَلَّمَ تَرَى الدَّالِي مِنْهُ أَرْوَا ... إِذَا يَعْبُثُ فِي السَّرِيِّ هَرَهْرًا
وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: السَّرِيُّ هُوَ عَيْسَى، وَالسَّرِيُّ هُوَ الرَّجُلُ الَّذِي لَهُ شَرَفٌ وَمُرُوءَةٌ، يُقَالُ فِي فِعْلِهِ سَرُوَ «بِالضَّمِّ» وَسَرَا «بِالْفَتْحِ» يَسْرُو سَرَوًا، فِيهِمَا، وَسَرِي «بِالْكَسْرِ» يَسْرِي سِرًى وَسِرَاءً وَسَرَوًا: إِذَا شَرَفَ، وَيُجْمَعُ السَّرِيُّ هَذَا عَلَى أَسْرِيَاءَ عَلَى الْقِيَاسِ، وَسُرَّوَاءَ وَسَرَاةٍ بِالْفَتْحِ، وَعَنْ سَبِيحَةَ أَنَّ السَّرَاةَ بِالْفَتْحِ اسْمُ جَمْعٍ لَا جَمْعُ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْأَفْوَاهِ الْأَوْدِي:

لَا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لَا سَرَاةَ لَهُمْ ... وَلَا سَرَاةٍ إِذَا جُهِلَتْ لَهُمْ سَادُوا
وَيُجْمَعُ السَّرَاةُ عَلَى سَرَوَاتٍ، وَمِنْهُ قَوْلُ قَيْسِ بْنِ الْحَطِيمِ:
وَعَمْرُهُ مِنْ سَرَوَاتِ النِّسَاءِ ... تَنْفَحُ بِالْمِسْكِ أُرْدَانُهَا
وَمِنْ إِطْلَاقِ السَّرِيِّ بِمَعْنَى الشَّرِيفِ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

تَلْقَى السَّرِيَّ مِنَ الرِّجَالِ بِنَفْسِهِ ... وَابْنُ السَّرِيِّ إِذَا سَرَا أَسْرَاهُمَا

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٣٧٢/٣

وَقَوْلُهُ «أَسْرَاهُمَا» ، أَي: أَسْرَفُهُمَا، قَالَهُ فِي اللِّسَانِ.

قَالَ مُقَيِّدُهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ وَعَمَّرَ لَهُ: أَظْهَرَ الْقَوْلَيْنِ عِنْدِي أَنَّ السَّرِيَّ فِي الْآيَةِ النَّهْرُ. (١)

"عَلَى أَحَدِ التَّفْسِيرَاتِ، وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾

[٤٣ \ ٣٨] .

وَأَمَّا إِحْضَارُهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جَنِيًّا، فَقَدْ أَشَارَ لَهُ فِي قَوْلِهِ: وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَانِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ [٤٥ \ ٢٨] ، وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: جَنِيًّا، جَمْعُ جَانٍ، وَالْجَانِي: اسْمُ فَاعِلٍ: جَنَّا يَجْتُو جُثُوًّا، وَجَتَّى يَجْتِي جَنِيًّا: إِذَا جَلَسَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ أَوْ قَامَ عَلَى أَطْرَافِ أَصَابِعِهِ، وَالْعَادَةُ عِنْدَ الْعَرَبِ: أَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا فِي مَوْقِفِ ضَنْكٍ وَأَمْرٍ شَدِيدٍ، جَنُّوا عَلَى رُكْبَتَيْهِمْ، وَمِنْهُ قَوْلُ بَعْضِهِمْ:

فَمَنْ لِلْحِمَاةِ وَمَنْ لِلْأُمَاةِ إِذَا مَا الْكُمَاةِ جَثُّوا لِلرَّكَبِ إِذَا قِيلَ مَاتَ أَبُو مَالِكٍ فَتَى الْمُكْرَمَاتِ قَرِيعُ الْعَرَبِ وَكَوْنُ مَعْنَى قَوْلِهِ: جَنِيًّا فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَقَوْلُهُ: وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَانِيَةً الْآيَةِ [٤٥ \ ٢٨] ، أَنَّهُ جَنِيُّهُمْ عَلَى رُكْبَتَيْهِمْ هُوَ الظَّاهِرُ، وَهُوَ قَوْلُ الْأَكْثَرِ، وَهُوَ الْإِطْلَاقُ الْمَشْهُورُ فِي اللُّغَةِ ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ الْكُمَيْتِ:

هُمْ تَرَكُوا سَرَائِهِمْ جَنِيًّا ... وَهُمْ دُونَ السَّرَاةِ مُقَرَّبِينَ

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: جَنِيًّا، أَنَّ مَعْنَاهُ: جَمَاعَاتٍ، وَعَنْ مُقَاتِلٍ جَنِيًّا، أَي: جَمْعًا جَمْعًا، وَهُوَ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ جَمْعُ «جُنُودَةٍ» مُثَلَّثَةُ الْجِيمِ، وَهِيَ الْحِجَارَةُ الْمَجْمُوعَةُ وَالتُّرَابُ الْمَجْمُوعُ، فَأَهْلُ الْحَمْرِ يَحْضُرُونَ حَوْلَ جَهَنَّمَ عَلَى حِدَةٍ، وَأَهْلُ الرِّزَى عَلَى حِدَةٍ ؛ وَأَهْلُ السَّرْفَةِ عَلَى حِدَةٍ . وَهَكَذَا، وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ طَرْفَةَ بْنِ الْعَبْدِ فِي **مُعَلَّقَتِهِ**:

تَرَى جُنُودَيْنِ مِنْ تُرَابٍ عَلَيْهِمَا ... صَفَائِحُ صُمٍّ مِنْ صَفِيحٍ مُنْضَدٍ

هَكَذَا قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَلَكِنَّهُ يَرُدُّ عَلَيْهِ أَنَّ «فُعْلَةً» كَجُنُودَةٍ، لَمْ يُعْهَدْ جَمْعُهَا عَلَى فُعُولٍ كَجُنُودٍ، وَقَرَأَ هَذَا الْحَزَفُ حَمْزَةً وَالْكَسَائِيُّ وَحَفْصٌ جَنِيًّا بِكَسْرِ الْجِيمِ إِتِّبَاعًا لِلْكَسْرِ بَعْدَهُ وَقَرَأَ الْبَاقُونَ: «جَنِيًّا» بِضَمِّ الْجِيمِ عَلَى الْأَصْلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا.

قَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: لَنَنْزِعَنَّ [١٩ \ ٦٩] ، أَي: لَنَسْتَخْرِجَنَّ. " (٢)

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٣/٣٩٥

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٣/٤٧٥

"الثالث: أَنَّ الْوُرُودَ الْمَذْكُورَ هُوَ الْإِشْرَافُ عَلَيْهَا وَالْقُرْبُ مِنْهَا.

الرَّابِعُ: أَنَّ حَظَّ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ذَلِكَ الْوُرُودِ هُوَ حُرُّ الْحُمَى فِي دَارِ الدُّنْيَا، وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي تَرْجَمَةِ هَذَا الْكِتَابِ الْمُبَارَكِ: أَنَّ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَيَانِ الَّتِي تَضَمَّنَهَا الْإِسْتِدْلَالُ عَلَى أَحَدِ الْمَعَانِي الدَّاخِلَةِ فِي مَعْنَى الْآيَةِ بِكَوْنِهِ هُوَ الْغَالِبُ فِي الْقُرْآنِ، فَعَلَبْتُهُ فِيهِ دَلِيلٌ اسْتِفْرَائِيٌّ عَلَى عَدَمِ خُرُوجِهِ مِنْ مَعْنَى الْآيَةِ، وَقَدْ قَدَّمْنَا أَمَثَلَةً لِدَلِّكَ، فَإِذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا اسْتَدَلَّ عَلَى الْمُرَادِ بِوُرُودِ النَّارِ فِي الْآيَةِ بِمِثْلِ ذَلِكَ الدَّلِيلِ الَّذِي ذَكَرْنَا أَنَّهُ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَيَانِ فِي هَذَا الْكِتَابِ الْمُبَارَكِ.

وَإِضَاحُهُ أَنَّ وُرُودَ النَّارِ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ فِي آيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَالْمُرَادُ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا الدُّخُولُ، فَاسْتَدَلَّ بِذَلِكَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَلَى أَنَّ «الْوُرُودَ فِي الْآيَةِ الَّتِي فِيهَا التَّرَاغُ هُوَ الدُّخُولُ» ؛ لِدَلَالَةِ الْآيَاتِ الْأُخْرَى عَلَى ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: يَفْقُدُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ [١١ \ ٩٨] ، قَالَ: فَهَذَا وُرُودُ دُخُولٍ، وَكَقَوْلِهِ: لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ [٢١ \ ٩٩] ، فَهُوَ وُرُودُ دُخُولٍ أَيْضًا، وَكَقَوْلِهِ: وَنَسُوفُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا [١٩ \ ٨٦] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ [٢١ \ ٦٨] ، وَبِهَذَا اسْتَدَلَّ ابْنُ عَبَّاسٍ عَلَى نَافِعِ بْنِ الْأَزْرَقِ فِي «أَنَّ الْوُرُودَ الدُّخُولُ» .

وَاحْتِجَّ مَنْ قَالَ بِأَنَّ الْوُرُودَ: الْإِشْرَافُ وَالْمُقَارَبَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ الْآيَةِ [٢٨ \ ٢٣] ، قَالَ: فَهَذَا وُرُودٌ مُقَارَبَةٌ وَإِشْرَافٌ عَلَيْهِ، وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمُ الْآيَةِ [١٢ \ ١١] ، وَنَظِيرُهُ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ قَوْلُ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ فِي **مُعَلَّقَتِهِ**:

فَلَمَّا وَرَدَنَ الْمَاءَ زُرْقًا جَمَامُهُ ... وَضَعْنَ عَصِيَّ الْحَاضِرِ الْمُتَحَيِّمِ

قَالُوا: وَالْعَرَبُ تَقُولُ: وَرَدَتِ الْقَافِلَةُ الْبَلَدَ، وَإِنْ لَمْ تَدْخُلْهُ وَلَكِنْ قَرِبَتْ مِنْهُ، وَاحْتِجَّ مَنْ قَالَ بِأَنَّ الْوُرُودَ فِي الْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِهَا لَيْسَ نَفْسَ الدُّخُولِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ [٢١ \ ١٠١ - ١٠٢] ، قَالُوا: إِبْعَادُهُمْ عَنْهَا الْمَذْكُورُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ دُخُولِهِمْ فِيهَا ؛ فَالْوُرُودُ غَيْرُ الدُّخُولِ.

وَاحْتِجَّ مَنْ قَالَ: بِأَنَّ وُرُودَ النَّارِ فِي الْآيَةِ بِالتَّسْبَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ: حُرُّ الْحُمَى فِي دَارِ. " (١)

"الرُّمَحُ: إِذَا غَيَّبَ طَرَفَهُ وَأَخْفَاهُ فِي الْأَرْضِ، وَمِنْهُ الرِّكَازُ: وَهُوَ دَفَنٌ جَاهِلِيٌّ مُعَيَّبٌ بِالدَّفْنِ فِي الْأَرْضِ، وَمِنْ إِطْلَاقِ الرِّكَازِ عَلَى الصَّوْتِ قَوْلُ لَبِيدٍ فِي **مُعَلَّقَتِهِ**:

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٤٧٨/٣

فَتَوَجَّسَتْ رِكَزَ الْأَنْيَسِ فَرَاعَهَا ... عَنْ ظَهْرِ غَيْبٍ وَالْأَنْيَسُ سَقَامُهَا
وَقَوْلُ طَرْفَةٍ فِي مُعَلَّقَتِهِ:

وَصَادِقَتَا سَمِعِ التَّوَجُّسَ لِلشَّرَى ... لِرِكَزٍ خَفِيِّ أَوْ لِمَصَوْتٍ مُنَدِّدٍ
وَقَوْلُ ذِي الرُّمَّةِ:

إِذَا تَوَجَّسَ رِكَزًا مُفَفِّرٌ نَدُسٌ ... بِنَبَاةِ الصَّوْتِ مَا فِي سَمْعِهِ كَذِبٌ
وَالْإِسْتِفْهَامُ فِي قَوْلِهِ: هَلْ يُرَادُ بِهِ النَّفْيُ، وَالْمَعْنَى: أَهْلَكْنَا كَثِيرًا مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ فَمَا تَرَى مِنْهُمْ أَحَدًا وَلَا
تَسْمَعُ لَهُمْ صَوْتًا، وَمَا ذَكَرَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ عَدَمِ رُؤْيَا أَشْخَاصِهِمْ، وَعَدَمِ سَمَاعِ أَصْوَاتِهِمْ ذَكَرَ بَعْضُهُ فِي
غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، كَقَوْلِهِ فِي عَادٍ: فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةِ [٦٩ \ ٨] ، وَقَوْلِهِ فِيهِمْ: فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا
مَسَاكِينُهُمْ [٤٦ \ ٢٥] ، وَقَوْلِهِ: فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبَنِيٌّ مُعْتَظِّلٌ
وَقَصْرٌ مَشِيدٌ [٢٢ \ ٤٥] ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سُورَةُ طه. " (١)

"كَقَوْلِهِ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ [٢٦ ١٩٢] ، وَقَوْلِهِ: تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ [٣٩ ١]
وَقَوْلِهِ: تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ [٤١ ٢] ، وَالْآيَاتُ بِمِثْلِ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ جِدًّا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى.
تَقَدَّمَ إِيضَاحُ الْآيَاتِ الْمُوضَّحَةِ لِهَذِهِ الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا فِي الْقُرْآنِ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ مُسْتَوْفَى فَأَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ
هُنَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى
. حَاطَبُ اللَّهِ نَبِيُّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بَأَنَّهُ: إِنْ يَجْهَرُ بِالْقَوْلِ أَيْ يَقُولُهُ جَهْرًا
فِي غَيْرِ حَقَاءٍ، فَإِنَّهُ جَلَّ وَعَلَا يَعْلَمُ السِّرَّ وَمَا هُوَ أَخْفَى مِنَ السِّرِّ. وَهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ هُنَا ذَكَرَهُ
فِي مَوَاضِعٍ أُخَرَ، كَقَوْلِهِ: وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ [٦٧ ١٣] ، وَقَوْلِهِ: وَاللَّهُ يَعْلَمُ

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٥١٩/٣

مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ [١٦ ١٩] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ [٤٧ ٢٦] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْآيَةَ [٢٥ ٦] ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وَفِي الْمُرَادِ بِقَوْلِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَأَخْفَى أَوْجُهُ مَعْرُوفَةٌ كُلُّهَا حَقٌّ وَيَشْهَدُ لَهَا قُرْآنٌ. قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ يَعْلَمُ السِّرَّ: أَيُّ مَا قَالَهُ الْعَبْدُ سِرًّا وَأَخْفَى أَيُّ وَيَعْلَمُ مَا هُوَ أَخْفَى مِنَ السِّرِّ، وَهُوَ مَا تُوسَّوسُ بِهِ نَفْسُهُ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوسَّوسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ [٥٠ \ ١٦]. وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ: أَيُّ مَا تُوسَّوسُ بِهِ نَفْسُهُ وَأَخْفَى مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ مَا عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ الْإِنْسَانَ سَيَفْعَلُهُ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ فَاعِلُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ [٢٣ ٦٣] ، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى [٥٣ ٣٢] فَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّهُ الْإِنْسَانُ الْيَوْمَ. وَمَا سَيُسِرُّهُ عَدَا. وَالْعَبْدُ لَا يَعْلَمُ مَا فِي عَدٍ كَمَا قَالَ زُهَيْرٌ فِي **مُعَلَّقَتِهِ**:

وَأَعْلَمَ عِلْمَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ ... وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمٍ مَا فِي عَدٍ عَمٍ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: وَأَخْفَى صِغَةً تَفْصِيلٍ كَمَا بَيَّنَّا، أَيُّ. (١)

"وَقَالَ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا [٣٣ ٣٨] . وَقَالَ جَرِيرٌ يَمْدَحُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ:

نَالَ الْخِلَافَةَ أَوْ كَانَتْ لَهُ قَدَرًا ... كَمَا أَتَى رَبُّهُ مُوسَى عَلَى قَدَرٍ

قَوْلُهُ تَعَالَى: اذْهَبْ أَنْتَ وَأُخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فِي ذِكْرِي اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى.

قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: الْمُرَادُ بِالْآيَاتِ فِي قَوْلِهِ هُنَا: اذْهَبْ أَنْتَ وَأُخُوكَ بِآيَاتِي الْآيَاتُ التَّسْعُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ الْآيَةَ [١٧ ١٠١] ، وَقَوْلُهُ: وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتِ الْآيَةَ [٢٧ ١٢] . وَالْآيَاتُ التَّسْعُ الْمَذْكُورَةُ هِيَ: الْعَصَا، وَالْيَدُ الْبَيْضَاءُ. . . إِلَى آخِرِهَا. وَقَدْ قَدَّمْنَا الْكَلَامَ عَلَيْهَا مُسْتَوْفَى فِي سُورَةِ «بَنِي إِسْرَائِيلَ» .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: إِنَّهُ طَغَى.

أَصْلُ الطُّغْيَانِ: مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ، وَمِنْهُ: إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ [٦٩ ١١] وَقَدْ بَيَّنَّ تَعَالَى شِدَّةَ طُغْيَانِ فِرْعَوْنَ وَمُجَاوَزَتَهُ الْحَدَّ فِي قَوْلِهِ عَنْهُ: فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى [٢٤ ٧٩] ، وَقَوْلِهِ عَنْهُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٦/٤

مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي [٢٨ ٣٨] ، وَقَوْلِهِ عَنْهُ أَيُّضًا: لَعْنِ اتَّخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ [٢٦ ٢٩] .
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: وَلَا تَبْنِا مُضَارِعٌ وَنَى يَنِي، عَلَى حَدِّ قَوْلِ ابْنِ مَالِكٍ فِي الْخُلَاصَةِ:
 فَا أَمْرٌ وَمُضَارِعٌ مِنْ كَوَعَدَ ... اخْدِفْ وَفِي كَعْدَةٍ ذَاكَ اطَّرَدَ
 وَالْوَنَى فِي اللَّعَةِ: الضَّعْفُ، وَالْفُتُورُ، وَالْكَالُلُ، وَالْإِعْيَاءُ، وَمِنْهُ قَوْلُ امْرِئِ الْقَيْسِ فِي **مُعَلَّقَتِهِ**:
 مَسَحَ إِذَا مَا السَّابِحَاتُ عَلَى الْوَنَى ... أَثَرْنَ غُبَارًا بِالْكَدِيدِ الْمُرْكَلِ
 وَقَوْلُ الْعَجَّاجِ:

فَمَا وَنَى مُحَمَّدٌ مُذْ أَنْ عَفَرَ ... لَهُ الْإِلَهَ مَا مَضَى وَمَا عَبَّرَ
 فَقَوْلُهُ: وَلَا تَبْنِا فِي ذِكْرِي أَيْ لَا تَضْعُفَا، وَلَا تَفْتُرَا فِي ذِكْرِي. وَقَدْ أَثْنَى اللَّهُ عَلَى مَنْ يَذْكُرُهُ فِي جَمِيعِ حَالَاتِهِ
 فِي قَوْلِهِ: الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ [٣ ١٩١] ، وَأَمَرَ بِذِكْرِ اللَّهِ عِنْدَ لِقَاءِ الْعَدُوِّ فِي
 قَوْلِهِ: إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا [٨ ٤٥]. (١)
 "الْأَلِفُ مِنْ تَحَشَى عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ فِي الْخُلَاصَةِ:

وَاخْدِفْ جَازِمًا ... ثَلَاثُهُنَّ تَقْضِي حُكْمًا لَازِمًا
 وَالْأَلِفُ لَمْ تُخْدَفْ فَوَقَعَ الْإِشْكَالُ بِسَبَبِ ذَلِكَ.
 وَأَجِيبَ عَنْهُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:

الْأَوَّلُ: أَنَّ وَلَا تَحَشَى مُسْتَأْنَفٌ حَبَّرَ مُبْتَدَأً مَخْدُوفٍ، تَقْدِيرُهُ: وَأَنْتَ لَا تَحَشَى، أَيْ: وَمِنْ شَأْنِكَ أَنْتَ آمِنٌ
 لَا تَحَشَى.

وَالثَّانِي: أَنَّ الْفِعْلَ مَجْزُومٌ، وَالْأَلِفُ لَيْسَتْ هِيَ الْأَلِفُ الَّتِي فِي مَوْضِعِ لَامِ الْكَلِمَةِ، وَلَكِنَّهَا زِيدَتْ لِلْإِطْلَاقِ
 مِنْ أَجْلِ الْفَاصِلَةِ، كَقَوْلِهِ: فَأَضْلُونَا السَّبِيلَ [٣٣ ٦٧] وَقَوْلِهِ: وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونِ [٣٣ ١٠] .

وَالثَّالِثُ: أَنَّ إِشْبَاعَ الْحَرَكَةِ بِحَرْفٍ مَدٍّ يُنَاسِبُهَا أُسْلُوبٌ مَعْرُوفٌ مِنْ أَسَالِيبِ اللَّعَةِ الْعَرَبِيَّةِ، كَقَوْلِ عَبْدِ يَعُوثَ
 بِنِ وَقَاصِ الْحَارِثِيِّ:

وَتَضْحَكُ مِنِّي شَيْخَةٌ عَبْشَمِيَّةٌ ... كَأَنَّ لَمْ تَرِ قَبْلِي أَسِيرًا يَمَانِيَا
 وَقَوْلِ الرَّاجِزِ:

إِذَا الْعَجُوزُ غَضِبَتْ فَطَلَّقْ ... وَلَا تَرْضَاهَا وَلَا تَمَلِّقْ
 وَقَوْلِ الْآخَرِ:

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ١٤/٤

قُلْتُ وَقَدْ حَرَّتْ عَلَى الْكَلْكَالِ ... يَا نَاقَتِي مَا جُلْتِ مِنْ مَجَالٍ
وَقَوْلٍ عَنَتَرَةٍ فِي مُعَلَّقَتِهِ:

يَنْبَاغُ مِنْ دَفْرِي غَضُوبٍ جَسْرَةٍ ... زَيَّافَةٍ مِثْلَ الْفَنِيقِ الْمُكْدَمِ
فَالْأَصْلُ فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ: كَأَنَّ لَمْ تَرِ، وَلَكِنَّ الْفَتْحَةَ أُشْبِعَتْ. وَالْأَصْلُ فِي الثَّانِي، وَلَا تَرْضُهَا، وَلَكِنَّ الْفَتْحَةَ
أُشْبِعَتْ. وَالْأَصْلُ فِي الثَّالِثِ عَلَى الْكَلْكَالِ يَعْنِي الصَّدْرَ، وَلَكِنَّ الْفَتْحَةَ أُشْبِعَتْ. وَالْأَصْلُ فِي الرَّابِعِ يَنْبُغُ
يَعْنِي أَنَّ الْعَرَقَ يَنْبُغُ مِنْ عَظَمِ الدَّفْرِى مِنْ نَاقَتِهِ عَلَى التَّحْقِيقِ، وَلَكِنَّ الْفَتْحَةَ أُشْبِعَتْ، وَإِشْبَاغُ الْفَتْحَةِ بِالْفِ
فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ وَأَمْثَالِهَا مِمَّا لَمْ نَذْكُرْهُ لَيْسَ لِضُرُورَةٍ لِلشَّعْرِ لِتَصْرِيحِ عُلَمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ بِأَنَّهُ أُسْلُوبٌ عَرَبِيٌّ مَعْرُوفٌ.
وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ أَنَّهُ مَسْمُوعٌ فِي النَّثْرِ، كَقَوْلِهِمْ فِي النَّثْرِ: كَلْكَالٌ، وَخَاتَامٌ، وَدَانَاقٌ، يَعْنُونَ كَلْكَالًا، وَخَاتَمًا، وَدَانِقًا.
وَقَدْ أَوْضَحْنَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ، وَكَثَرْنَا مِنْ شَوَاهِدِهَا الْعَرَبِيَّةِ فِي كِتَابِنَا. (١)

"إِنَّ رَبَّهُ يَنْسِفُهَا نَسْفًا، وَذَلِكَ بِأَنْ يَقْلَعَهَا مِنْ أَصُولِهَا، ثُمَّ يَجْعَلَهَا كَالرَّمْلِ الْمُتَهَابِلِ الَّذِي يَسِيلُ،
وَكَالصُّوفِ الْمَنْفُوشِ تُطِيرُهَا الرِّيحُ هَكَذَا وَهَكَذَا.

وَأَعْلَمَ أَنَّهُ جَلٌّ وَعَلَا بَيْنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي تَصِيرُ إِلَيْهَا الْجِبَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي آيَاتٍ مِنْ كِتَابِهِ. فَبَيَّنَ أَنَّهُ يَنْزِعُهَا
مِنْ أَمَاكِنِهَا وَيَحْمِلُهَا فَيَدْكُهَا دَكًّا. وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةً وَاحِدَةً وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ
فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً [٦٩ \ ١٣ - ١٤] ، .

ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّهُ يُسِيرُهَا فِي الْهَوَاءِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزَعَ مَنْ فِي
السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوِّهٍ دَاخِرِينَ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ
السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ [٢٧ \ ٨٧ - ٨٨] ، وَقَوْلِهِ: وَيَوْمَ نُسِيرُ
الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً الْآيَةَ [١٨ \ ٤٧] وَقَوْلِهِ: وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ [٨١ \ ٣] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَسُيِّرَتِ
الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا [٧٨ \ ٢٠] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا وَتُسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا [٥٢ \ ٩ -
١٠] ، .

ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّهُ يُفْتَتِّهَا وَيَدْفُقُهَا كَقَوْلِهِ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا أَيُّ: فُتِّتَتْ حَتَّى صَارَتْ كَالْبَسِيسَةِ، وَهِيَ دَقِيقٌ مَلْتَوْتُ
بِسْمَنِ أَوْ نَحْوِهِ عَلَى الْقَوْلِ بِذَلِكَ، وَقَوْلِهِ: وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً [٦٩ \ ١٤] ، .
ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّهُ يُصَيِّرُهَا كَالرَّمْلِ الْمُتَهَابِلِ، وَكَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ؟ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتْ
الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً [٧٣ \ ١٤] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ [٧٠ \

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٧٠/٤

[٩] ، في «المعارج، والقارعة» . والعهن: الصوف المصبوغ. ومنه قول زهير بن أبي سلمى في **معلقته**:

كَأَنَّ فُتَاتَ الْعِهْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ ... نَزَلْنَ بِهِ حُبُّ الْقَنَا لَمْ يُحْطَمِ

ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّهَا تَصِيرُ كَالْهَبَاءِ الْمُنْبَثِّ فِي قَوْلِهِ: وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا [٥٦ \ ٥ - ٦] ، ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّهَا تَصِيرُ سَرَابًا، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا [٧٨ \ ٢٠] ، وَقَدْ بَيَّنَّ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: أَنَّ السَّرَابَ لَا شَيْءَ. وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا [٢٤ \ ٣٩] ، وَبَيَّنَّ أَنَّهُ يَنْسِفُهَا نَسْفًا فِي قَوْلِهِ هُنَا: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا [٢٠ \ ١٠٥] .

تَنْبِيْهُ. " (١)

"وَالِدَقَّة. وَبَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ يَقُولُ: هُوَ زُرْبَعَةُ الْجَرْجِيرِ. وَأَنْتَ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ بِهَا هُوَ رَاجِعٌ إِلَى الْمُضَافِ الَّذِي هُوَ مِثْقَالٌ وَهُوَ مُذَكَّرٌ لِإِكْتِسَابِهِ التَّأْنِيثِ مِنَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ الَّذِي هُوَ حَبَّةٌ مِنْ خَزْدَلٍ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ فِي الْخُلَاصَةِ:

وَرُبَّمَا أَكْسَبَ ثَانٍ أَوَّلًا ... تَأْنِيثًا إِنْ كَانَ لِحَذْفِ مُؤَهَّلًا

وَنَظِيرُ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ قَوْلُ عَنَتَرَةَ فِي **معلقته**:

جَادَتْ عَلَيْهِ كُلُّ عَيْنٍ ثَرَّةً ... فَتَرَكْنَ كُلَّ قَرَارَةٍ كَالِدَرِّهِمْ

وَقَوْلُ الرَّاجِزِ:

طُولُ اللَّيَالِي أَسْرَعَتْ فِي نَقْضِي ... نَقْضَنْ كُلِّي وَنَقْضَنْ بَعْضِي

وَقَوْلُ الْأَعَشَى:

وَتُشْرِقُ بِالْقَوْلِ الَّذِي قَدْ أَدْعَتْهُ ... كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ الْقَنَاةِ مِنَ الدَّمِ

وَقَوْلُ الْآخَرِ:

مَشَيْنَ كَمَا اهْتَزَّتْ رِمَاحٌ تَسْفَهَتْ ... أَعَالِيهَا مَرُّ الرِّيَّاحِ التَّوَّاسِمِ

فَقَدْ أَنْتَ فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ لَفْظَةً «كُلُّ» لِإِضَافَتِهَا إِلَى «عَيْنٍ» . وَأَنْتَ فِي الْبَيْتِ الثَّانِي لَفْظَةً «طُولُ»

لِإِضَافَتِهَا إِلَى «الليالي» وَأَنْتَ فِي الْبَيْتِ الثَّالِثِ الصَّدْرَ لِإِضَافَتِهِ إِلَى «القناة» وَأَنْتَ فِي الْبَيْتِ الرَّابِعِ «مَرُّ»

لِإِضَافَتِهِ إِلَى «الرِّيَّاحِ» . وَالْمُضَافَاتُ الْمَذْكُورَةُ لَوْ حُذِفَتْ لَبَقِيَ الْكَلَامُ مُسْتَقِيمًا، كَمَا قَالَ فِي الْخُلَاصَةِ:.

..... إِنْ كَانَ لِحَذْفِ مُؤَهَّلًا

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٩٧/٤

وَقَرَأَ هَذَا الْحَرْفَ عَامَّةُ الْقُرَّاءِ مَا عَدَا نَافِعًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ يَنْصَبُ مِثْقَالٌ عَلَى أَنَّهُ خَبِرُ كَانَ أَيْ: وَإِنْ كَانَ الْعَمَلُ الَّذِي يُرَادُ وَزْنُهُ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ.

وَقَرَأَ نَافِعٌ وَحْدَهُ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالٌ بِالرَّفْعِ، فَاعِلٌ كَانَ عَلَى أَنَّهَا تَامَّةٌ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنْ كَانَ دُو عُسْرَةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ.

ذَكَرَ - جَلَّ وَعَلَا - فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ذَكَرَ مُبَارَكُ أَيْ: كَثِيرُ الْبَرَكَاتِ وَالْخَيْرَاتِ؛ لِأَنَّ فِيهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. ثُمَّ وَبَّحَ مَنْ يُنْكِرُونَهُ مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ. وَمَا ذَكَرَهُ - جَلَّ وَعَلَا - فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنْ أَنَّ هَذَا. (١)

"يَوْمَعِدِ الشَّعِيرِ. فَهَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ صَرَّحَ فِيهِ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِأَنَّ الطَّعَامَ إِذَا بِيَعَ بِالطَّعَامِ بِيَعٌ مِثْلًا بِمِثْلِ. وَالطَّعَامُ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ: اسْمٌ لِكُلِّ مَا يُؤْكَلُ، قَالَ تَعَالَى: كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًَّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْآيَةُ [٣ \ ٩٣] وَقَالَ: فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا [٨٠ \ ٢٤ - ٢٨] وَقَالَ تَعَالَى: وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ [٥ \ ٥] وَلَا خِلَافَ فِي ذَبَائِحِهِمْ فِي ذَلِكَ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ فِي زَمْرٍ: «إِنَّهَا طَعَامُ طُعْمٍ» وَقَالَ لَبِيدٌ فِي مَعْلَقَتِهِ:

لِمُعَقَّرٍ فَهَدٍ تَنَازَعَ شِلْوُهُ ... غُبْسٌ كَوَاسِبٌ لَا يُمْنُ طَعَامُهَا

يَعْنِي بِطَعَامِهَا: فَرِيَسَتِهَا، كَمَا قَدَّمْنَا هَذَا مُسْتَوْفَى فِي سُورَةِ «الْبَقَرَةِ» .

فَالشَّافِعِيُّ وَإِنْ سَخَرَ الظَّاهِرِيَّةُ مِنْهُ فِي تَحْرِيمِ الرِّبَا فِي التُّفَاحِ فَهُوَ مُتَمَسِّكٌ فِي ذَلِكَ بِظَاهِرِ حَدِيثِ صَحِيحٍ، يَقُولُ فِيهِ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «الطَّعَامُ بِالطَّعَامِ مِثْلًا بِمِثْلِ» . فَمَا الْمَانِعُ لِلظَّاهِرِيَّةِ مِنَ الْقَوْلِ بِظَاهِرِ هَذَا الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَلَى عَادَتِهِمُ الَّتِي يَزْعُمُونَ فَيَحْكُمُونَ عَلَى الطَّعَامِ بِأَنَّهُ مِثْلٌ بِمِثْلِ؟ وَمَا مُسْتَنْدَهُمْ فِي مُخَالَفَةِ ظَاهِرِ هَذَا الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ، وَحُكْمُهُمُ بِالرِّبَا فِي الْبُرِّ وَالشَّعِيرِ وَالتَّمْرِ وَالْمِلْحِ دُونَ غَيْرِهَا مِنْ سَائِرِ الْمَطْعُومَاتِ؟ مَعَ أَنَّ لَفْظَ الطَّعَامِ فِي الْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ عَامٌّ لِلْأَرْبَعَةِ الْمَذْكُورَةِ وَغَيْرِهَا كَمَا تَرَى، فَهَلِ الشَّافِعِيُّ فِي تَحْرِيمِ الرِّبَا فِي التُّفَاحِ أَقْرَبُ إِلَى ظَاهِرِ النَّصِّ أَوْ الظَّاهِرِيَّةُ؟ وَكَذَلِكَ سُخْرِيَّتُهُمْ مِنَ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَحْمَدَ - رَحِمَهُمَا اللَّهُ - فِي قَوْلِهِمَا بِدُخُولِ الرِّبَا فِي كُلِّ مَكِيلٍ وَمَوْزُونٍ، مُسْتَهْزِئِينَ بِمَنْ يَقُولُ بِالرِّبَا فِي الْأَشْنَانِ قِيَاسًا عَلَى التَّمْرِ - إِذَا تَأَمَّلْتَ فِيهِ وَجَدْتَ الْإِمَامَيْنِ - رَحِمَهُمَا اللَّهُ - أَقْرَبَ فِي ذَلِكَ إِلَى ظَاهِرِ

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ١٦١/٤

النَّصِّ مِنَ الظَّاهِرِيَّةِ.

قَالَ الْحَاكِمُ فِي (الْمُسْتَدْرَكِ) : حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ أَحْمَدُ بْنُ سُلَيْمَانَ الْقَفِيهِيُّ، ثنا الْحَسَنُ بْنُ مُكْرَمٍ، ثنا رَوْحُ بْنُ عُبَادَةَ، ثنا حَيَّانُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ الْعَدَوِيُّ، قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا مِجْلَزٍ عَنِ الصَّرْفِ، فَقَالَ: كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - لَا يَرَى بِهِ بَأْسًا زَمَانًا مِنْ عُمُرِهِ مَا كَانَ مِنْهُ عَيْنًا، يَعْنِي يَدًا بِيَدٍ، فَكَانَ يَقُولُ: إِنَّمَا الرِّبَا فِي النَّسِيئَةِ. فَلَقِيَهُ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ، فَقَالَ: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، أَلَا تَتَّقِي اللَّهَ إِلَى مَتَى تُؤْكِلُ النَّاسَ الرِّبَا؟ أَمَا بَلَغَكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ عِنْدَ زَوْجَتِهِ أُمِّ سَلَمَةَ: «إِنِّي لَأَسْتَهِي تَمْرَ عَجْوَةٍ» فَبَعَثَتْ صَاعَيْنِ مِنْ تَمْرٍ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَجَاءَ بِدَلٍّ مِائَتَيْنِ صَاعٍ مِنْ تَمْرٍ عَجْوَةٍ، فَقَامَتْ فَقَدَّمَتْهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَلَمَّا رَأَاهُ أَعْجَبَهُ، فَتَنَاوَلَ تَمْرَةً، ثُمَّ أَمْسَكَ فَقَالَ: «مِنْ أَيْنَ لَكُمْ هَذَا؟» (١).

"بِذَلِكَ الْحَمِيمِ إِذَا سُقِيَ فَوَصَلَ إِلَى بُطُونِهِمْ كُلُّ مَا فِي بُطُونِهِمْ مِنَ الشَّحْمِ وَالْأَمْعَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ [٤٧ \ ١٥] وَالْعَرَبُ تَقُولُ: صَهَرْتُ الشَّيْءَ فَأَنْصَهَرُ، فَهُوَ صَهِيرٌ؛ أَيُّ: أَذْبَنُهُ فَذَابَ، وَمِنْهُ قَوْلُ ابْنِ أَحْمَرَ يَصِفُ تَغْذِيَةَ قَطَاةٍ لِقَرْحِهَا فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ: تُرَوَّى لَقَى أَلْقَى فِي صَفْصَفٍ ... تَصْهَرُ الشَّمْسُ فَمَا يَنْصَهَرُ ؛ أَيُّ: تُذْيِبُهُ الشَّمْسُ، فَيَصْبِرُ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا يَذُوبُ.

وَقَوْلُهُ: وَالْجُلُودُ الظَّاهِرُ أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى «مَا» مِنْ قَوْلِهِ: يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ [٢٢ \ ٢٠] الَّتِي هِيَ نَائِبُ فَاعِلٍ «يُصْهَرُ» وَعَلَى هَذَا الظَّاهِرِ الْمُتَبَادِرِ مِنَ الْإِيَّاتِ فَذَلِكَ الْحَمِيمُ يُذِيبُ جُلُودَهُمْ، كَمَا يُذِيبُ مَا فِي بُطُونِهِمْ لِشِدَّةِ حَرَارَتِهِ.

إِذِ الْمَعْنَى: يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ، وَتُصْهَرُ بِهِ الْجُلُودُ؛ أَيُّ: جُلُودُهُمْ، فَالْأَلْفُ وَاللَّامُ قَامَتَا مَقَامَ الْإِضَافَةِ، وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: وَالْجُلُودُ مَرْفُوعٌ بِفِعْلِ مَحْذُوفٍ مَعْطُوفٍ عَلَى تُصْهَرُ، وَتَقْدِيرُهُ: وَتُحْرِقُ بِهِ الْجُلُودُ، وَنَظِيرُ ذَلِكَ فِي تَقْدِيرِ الْعَامِلِ الْمَحْذُوفِ الرَّافِعِ الْبَاقِي مَعْمُولُهُ مَرْفُوعًا بَعْدَ الْوَائِ، قَوْلُ لَبِيدٍ فِي **مُعَلَّقَتِهِ**:

فَعَلَا فُرُوعُ الْأَيْهَقَانِ وَأَطْفَلَتْ بِالْجَلْهَتَيْنِ ظَبَاؤُهَا وَنَعَامُهَا

يَعْنِي: وَبَاضَ نَعَامُهَا ؛ لِأَنَّ النَّعَامَةَ لَا تَلِدُ الطِّفْلَ، وَإِنَّمَا تَبِضُّ، بِخِلَافِ الطَّبْيَةِ فَهِيَ تَلِدُ الطِّفْلَ، وَمِثْلُهُ فِي الْمَنْصُوبِ قَوْلُ الْآخَرِ:

إِذَا مَا الْعَانِيَاتِ بَرَزْنَ يَوْمًا ... وَرَجَّجْنَ الْحَوَاجِبَ وَالْعُيُونَا

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٢٢٤/٤

تَرَى مِنَّا الْأُيُورَ إِذَا رَأَوْهَا ... قِيَامًا رَاكِعِينَ وَسَاجِدِينَ
يَعْنِي رَجَجْنَ الْحَوَاجِبَ، وَأَكْحَلْنَ الْعُيُونَ.
وَقَوْلُهُ:

وَرَأَيْتُ زَوْجَكَ فِي الْوَعَى ... مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُمْحًا
؛ أَي: وَحَامِلًا رُمْحًا ؛ لِأَنَّ الرُّمَحَ لَا يُتَقَلَّدُ.
وَقَوْلُ الْآخِرِ: " (١)

"طَرَفَةٌ فِي مُعَلَّقَتِهِ."

وَإِنْ شِئْتُ سَامَى وَاسِطَ الْكُورِ رَأْسُهَا ... وَعَامَتِ بِضَبْعَيْهَا نَجَاءَ الْحَفِيدِ
تَقُولُ الْعَرَبُ: ضَبَعُهُ إِذَا مَدَّ إِلَيْهِ ضَبْعَهُ، لِيَضْرِبَهُ. وَمِنْهُ قَوْلُ عَمْرِو بْنِ شَاسٍ:
نَذُودُ الْمُلُوكَ عَنْكُمْ وَتَذُودُنَا ... وَلَا صَلَحَ حَتَّى تَضْبَعُونَا وَنَضْبَعَا

؛ أَي تَمْدُون أَضْبَاعَكُمْ إِلَيْنَا بِالسُّيُوفِ، وَنَمْدُ أَضْبَاعَنَا إِلَيْكُمْ، وَقِيلَ: تَضْبَعُونَ؛ أَي: تَمْدُون أَضْبَاعَكُمْ لِلصُّلْحِ
وَالْمُصَافَحَةِ. وَالطَّاءُ فِي الْإِضْبَاعِ مُبْدَلَةٌ مِنْ تَاءِ الْإِفْتِعَالِ ؛ لِأَنَّ الضَّادَ مِنْ حُرُوفِ الْإِطْبَاقِ عَلَى الْقَاعِدَةِ
الْمُشَارِ لَهَا بِقَوْلِهِ فِي الْخُلَاصَةِ:

طَاتَا افْتِعَالٍ رَدٌّ إِثَرٍ مُطْبِقٍ ... فِي إِدَانٍ وَازْدَدَ وَادَّكَرَ دَالًا بَقِيَ

الْفَرْعُ الرَّابِعُ: فِي كَلَامِ الْعُلَمَاءِ فِي الطَّوَافِ هَلْ يُشْتَرِطُ لَهُ مَا يُشْتَرِطُ لِلصَّلَاةِ مِنْ طَهَارَةِ الْحَدَثِ، وَالْحَبْثِ
وَسِتْرِ الْعَوْرَةِ أَوْ لَا يُشْتَرِطُ ذَلِكَ؟

اعْلَمْ أَنَّ اشْتِرَاطَ الطَّهَارَةِ مِنَ الْحَدَثِ، وَالْحَبْثِ، وَسِتْرِ الْعَوْرَةِ فِي الطَّوَافِ هُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ، مِنْهُمْ
مَالِكٌ، وَأَصْحَابُهُ، وَالشَّافِعِيُّ، وَأَصْحَابُهُ، وَهُوَ مَشْهُورٌ مَذْهَبُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ.
قَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ الْمُهَذَّبِ: وَحَكَاهُ الْمَاوَرِدِيُّ عَنْ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ، وَحَكَاهُ ابْنُ الْمُنْذِرِ فِي طَهَارَةِ الْحَدَثِ،
عَنْ عَامَّةِ الْعُلَمَاءِ.

وَخَالَفَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ الْجُمْهُورَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، فَقَالَ: لَا تُشْتَرِطُ لِلطَّوَافِ طَهَارَةٌ، وَلَا سِتْرُ
عَوْرَةٍ، فَلَوْ طَافَ جُنْبًا، أَوْ مُخْدِثًا، أَوْ عَلَيْهِ نَجَاسَةٌ، أَوْ عُزْبَانًا صَحَّ طَوَافُهُ عِنْدَهُ.
وَاخْتَلَفَ أَصْحَابُهُ فِي وُجُوبِ الطَّهَارَةِ لِلطَّوَافِ، مَعَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ بِشَرْطٍ فِيهِ. وَمِنْ أَشْهَرِ الْأَقْوَالِ

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٢٩٠/٤

عِنْدَهُمْ أَنَّهُ إِذَا طَافَ طَوَافَ الْإِفَاضَةِ جُنُبًا، فَعَلَيْهِ بَدَنَةٌ، وَإِنْ طَافَهُ مُحْدِثًا: فَعَلَيْهِ شَاةٌ، وَأَنَّهُ يُعِيدُ الطَّوَافَ بِطَهَارَةٍ مَا دَامَ بِمَكَّةَ، فَإِنْ رَجَعَ إِلَى بَلَدِهِ، فَالِدُّمُ عَلَى التَّفْصِيلِ الْمَذْكُورِ، وَاحْتِجَّ الْجُمْهُورُ لِاسْتِرَاطِ الطَّهَارَةِ لِلطَّوَافِ، بِأَدِلَّةٍ.

مِنْهَا: حَدِيثُ عَائِشَةَ الْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ سَابِقًا بِسَنَدِهِ، وَمَتْنِهِ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ: أَنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ ٍ بَدَأَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَدِمَ: «أَنَّهُ تَوَضَّأَ، ثُمَّ طَافَ بِالْبَيْتِ» الْحَدِيثُ، قَالُوا: فَهَذَا الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ صَرَّحَتْ فِيهِ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، بِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَدَأَ بِالْوُضُوءِ قَبْلَ الطَّوَافِ لِطَوَافِهِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلطَّوَافِ مِنَ الطَّهَارَةِ.. (١)

"حَدِيثٌ آخَرُ أَخْرَجَهُ الْبَزَّازُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ مُعَلَّى بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْوَاسِطِيِّ: ثَنَا عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - : «أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نَهَى أَنْ تَخْلُقَ الْمَرْأَةُ رَأْسَهَا»، انْتَهَى. قَالَ الْبَزَّازُ: وَمُعَلَّى بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْوَاسِطِيُّ رَوَى عَنْ عَبْدِ الْحَمِيدِ أَحَادِيثَ، لَمْ يُتَابَعَ عَلَيْهَا، وَلَا نَعْلَمُ أَحَدًا تَابَعَهُ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ. انْتَهَى، وَرَوَاهُ ابْنُ عَدِيٍّ فِي الْكَامِلِ، وَقَالَ: أَرْجُو أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِهِ، قَالَ عَبْدُ الْحَقِّ: وَضَعَفَهُ أَبُو حَاتِمٍ وَقَالَ: إِنَّهُ مَثْرُوكُ الْحَدِيثِ انْتَهَى. وَقَالَ ابْنُ حِبَّانَ فِي كِتَابِ «الضُّعْفِ ١»: يَرْوِي عَنْ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ جَعْفَرٍ الْمُقْلُوبَاتِ، لَا يَجُوزُ الْإِحْتِجَاجُ بِهِ، إِذَا تَفَرَّدَ حَدِيثٌ آخَرُ، رَوَاهُ الْبَزَّازُ فِي مُسْنَدِهِ أَيْضًا.

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ الثَّقَفِيُّ، ثَنَا رَوْحُ بْنُ عَطَاءٍ بْنِ أَبِي مَيْمُونَةَ، ثَنَا أَبِي، عَنْ وَهْبِ بْنِ عُمَيْرٍ قَالَ: سَمِعْتُ عُثْمَانَ يَقُولُ: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ تَخْلُقَ الْمَرْأَةُ رَأْسَهَا» انْتَهَى. قَالَ الْبَزَّازُ: وَوَهْبُ بْنُ عُمَيْرٍ لَا نَعْلَمُهُ رَوَى غَيْرَ هَذَا الْحَدِيثِ، وَلَا نَعْلَمُ رَوَى عَنْهُ إِلَّا عَطَاءُ بْنُ أَبِي مَيْمُونَةَ، وَرَوْحُ لَيْسَ بِالْقَوِيِّ. انْتَهَى كَلَامُ الزَّيْلَعِيِّ فِي «نَصْبِ الرَّايَةِ» .

وَهَذِهِ الرِّوَايَاتُ الَّتِي ذَكَرْنَا فِي نَهْيِ الْمَرْأَةِ َعَنْ حَلْقِ رَأْسِهَا، عَنْ عَلِيٍّ، وَعُثْمَانَ، وَعَائِشَةَ: يُعْضِدُ بَعْضُهَا بَعْضًا كَمَا تَعْتَضِدُ بِمَا تَقْدِّمُ، وَبِمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَأَمَّا كَوْنُ حَلْقِ الْمَرْأَةِ رَأْسَهَا لَيْسَ مِنْ عَمَلِ نِسَاءِ الصَّحَابَةِ، فَمَنْ بَعْدَهُمْ، فَهُوَ أَمْرٌ مَعْرُوفٌ، لَا يَكَادُ يُخَالِفُ فِيهِ إِلَّا مُكَابِرٌ، فَالْقَائِلُ: بِجَوَازِ الْحَلْقِ لِلْمَرْأَةِ قَائِلٌ بِمَا لَيْسَ مِنْ عَمَلِ الْمُسْلِمِينَ الْمَعْرُوفِ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» ، فَالْحَدِيثُ يَشْمَلُ عُمُومَهُ الْحَلْقَ بِالنِّسْبَةِ لِلْمُحَرَّمَ بِلَا شَكٍّ، وَإِذَا لَمْ يُبَحَّ لَهَا حَلْقُهُ فِي حَالِ النُّسْكِ، فَغَيْرُهُ مِنَ الْأَحْوَالِ أَوْلَى، وَأَمَّا كَوْنُ حَلْقِ الْمَرْأَةِ رَأْسَهَا تَشَبُّهًُا بِالرِّجَالِ، فَهُوَ وَاضِحٌ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْحَالِقَةَ رَأْسَهَا

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٣٩٦/٤

مُتَشَبِّهَةٌ بِالرِّجَالِ ؛ لِأَنَّ الْخَلْقَ مِنْ صِفَاتِهِمُ الْخَاصَّةِ بِهِمْ ذُورَ الْإِنَاثِ عَادَةً. وَقَدْ قَدَّمْنَا الْحَدِيثَ الصَّحِيحَ فِي لَعْنِ الْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ فِي سُورَةِ «بَنِي إِسْرَائِيلَ» فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ [١٧ \ ٩] . وَأَمَّا كَوْنُ خَلْقِ رَأْسِ الْمَرْأَةِ مِثْلَةً، فَوَاضِحٌ ؛ لِأَنَّ شَعْرَ رَأْسِهَا مِنْ أَحْسَنِ أَنْوَاعِ جَمَالِهَا وَخَلْقُهُ تَقْبِيحٌ لَهَا وَتَشْوِيَةٌ لِخَلْقِهَا، كَمَا يُدْرِكُهُ الْحِسُّ السَّلِيمُ، وَعَامَّةُ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ مَحَاسِنَ النِّسَاءِ فِي أَشْعَارِهِمْ، وَكَلَامِهِمْ مُطْبِقُونَ عَلَى أَنَّ شَعْرَ الْمَرْأَةِ الْأَسْوَدَ مِنْ أَحْسَنِ زِينَتِهَا لَا نِزَاعَ فِي ذَلِكَ بَيْنَهُمْ فِي جَمِيعِ طَبَقَاتِهِمْ وَهُوَ فِي أَشْعَارِهِمْ مُسْتَفِيزٌ اسْتِفَاضَةً يَعْلَمُهَا كُلُّ مَنْ لَهُ أَدْنَى الْإِلْمِ، وَسَدِّكُرُ هُنَا مِنْهُ أَمِثْلَةٌ قَلِيلَةٌ تَنْبِيْهَا بِهَا عَلَى غَيْرِهَا قَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ فِي **مُعَلَّقَتِهِ**: " (١)

"الْفُلُكُ وَالْأَنْعَامُ مَعَا: وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلُكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ [٤٣ \ ١٢ - ١٤] وَقَوْلُهُ فِي السُّفُنِ: آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ [٣٦ \ ٤١ - ٤٢] وَقَوْلُهُ: أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلُكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ [٢٢ \ ٦٥] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: وَتَرَى الْفُلُكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لِبَتَّبَعُوا مِنْ فَضْلِهِ [١٦ \ ١٤] وَالْآيَاتُ بِمِثْلِ هَذَا كَثِيرَةٌ، وَهَذَا مِنْ نِعَمِهِ وَآيَاتِهِ، وَفَرَنَ الْأَنْعَامَ بِالْفُلُكِ فِي الْآيَاتِ الْمَذْكُورَةِ ؛ لِأَنَّ الْإِبِلَ سَفَائِنُ الْبَرِّ، كَمَا قَالَ ذُو الرُّمَّةِ:

أَلَا خِيَلْتُ مَنِّي وَقَدْ نَامَ صُحْبَتِي ... فَمَا نَفَرَ التَّهْوِيمَ إِلَّا سَلَامُهَا طَرُوقًا

وَجُلِبَ الرَّحْلُ مَشْدُودَةً بِهَا ... سَفِينَةٌ بَرٍّ تَحْتَ خَدِّي زِمَامُهَا

فَتَرَاهُ سَمَى نَاقَتَهُ سَفِينَةً بَرٍّ وَجُلِبَ الرَّحْلُ بِالضَّمِّ وَالْكَسْرِ عِيدَانُهُ أَوْ الرَّحْلُ بِمَا فِيهِ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ، قَدْ تَقَدَّمتِ الْإِشَارَةُ إِلَى مَا فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ، الَّتِي لَهَا بَيَانٌ فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ فَأَعْنَى ذَلِكَ عَنْ إِعَادَتِهِ هُنَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلٌّ مَا جَاءَ أُمَّةً رُسُولُهَا كَذَبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ، بَيَّنَّ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّهُ بَعْدَ إِرْسَالِ نُوحٍ وَالرَّسُولِ الْمَذْكُورِ بَعْدَهُ أَرْسَلَ رُسُلَهُ تَتْرَى أَي: مُتَوَاتِرِينَ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، وَكُلُّ مُتَتَابِعٍ مُتَتَالٍ تُسَمِّيهِ الْعَرَبُ مُتَوَاتِرًا، وَمِنْهُ قَوْلُ لَبِيدٍ فِي

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ١٨٩/٥

يَعْلُو طَرِيقَةً مَتْنَهَا مُتَوَاتِرٌ ... فِي لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومَ عَمَامُهَا
يَعْنِي: مَطَرًا مُتَتَابِعًا، أَوْ غُبَارَ رِيحٍ مُتَتَابِعًا، وَتَاءُ تَتْرَى مُبْدَلَةٌ مِنَ الْوَاوِ، وَأَنَّهُ كُلُّ مَا أَرْسَلَ رَسُولًا إِلَى أُمَّةٍ كَذَّبُوهُ
فَأَهْلَكَهُمْ، وَاتَّبَعَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي الْإِهْلَاكِ الْمَتِّ سَأَصِلُ بِسَبَبِ تَكْذِيبِ الرُّسُلِ، وَهَذَا الْمَعْنَى الْمَذْكُورُ فِي
هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ جَاءَ مُوَضَّحًا فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَقَدْ بُيِّنَتْ آيَةُ اسْتِثْنَاءِ أُمَّةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذَا الْإِهْلَاكِ الْمَذْكُورِ.
أَمَّا الْآيَاتُ الْمُوَضَّحَةُ لِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ فَهِيَ كَثِيرَةٌ جِدًّا؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: (١)

"وَرُجُوعُ الْإِشَارَةِ، أَوِ الضَّمِيرِ بِالْإِفْرَادِ مَعَ رُجُوعِهِمَا إِلَى مُتَعَدِّدٍ بِاعْتِبَارِ الْمَذْكُورِ أُسْلُوبٌ عَرَبِيٌّ مَعْرُوفٌ،
وَمِنْهُ فِي الْإِشَارَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ [٢ \ ٦٨] أَي: ذَلِكَ الْمَذْكُورُ مِنَ الْفَارِضِ وَالْبِكْرِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا [٢٥ \ ٦٧] أَي: بَيْنَ ذَلِكَ الْمَذْكُورِ
مِنَ الْإِسْرَافِ وَالْقَتْرِ، وَقَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّبْعَرِيِّ السَّهْمِيِّ:
إِنَّ لِلْخَيْرِ وَلِلشَّرِّ مَدَى ... وَكَيْلًا ذَلِكَ وَجْهٌ وَقُبُلٌ

أَي: وَكَيْلًا ذَلِكَ الْمَذْكُورُ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَمِنْهُ فِي الضَّمِيرِ قَوْلُ رُؤَبَةَ:
فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقٍ ... كَأَنَّهُ فِي الْجِلْدِ تَوَلَّيْعُ الْبَهَقِ
أَي: كَأَنَّهُ، أَي: مَا ذَكَرَ مِنْ خُطُوطِ السَّوَادِ وَالْبَلَقِ، وَقَدْ قَدَّمْنَا هَذَا الْبَيْتَ.
أَمَّا عَادٌ وَثُمُودٌ فَقَدْ جَاءَتْ قِصَّةُ كُلِّ مِنْهُمَا مُفَصَّلَةً فِي آيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ. وَأَمَّا أَصْحَابُ الرَّسِّ فَلَمْ يَأْتِ فِي
الْقُرْآنِ تَفْصِيلُ قِصَّتِهِمْ وَلَا اسْمُ نَبِيِّهِمْ، وَلِلْمُفَسِّرِينَ فِيهِمْ أَقْوَالٌ كَثِيرَةٌ تَرَكَّنَاهَا لِأَنَّهَا لَا دَلِيلَ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا.
وَالرَّسُّ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ: الْبُئْرُ الَّتِي لَيْسَتْ بِمَطْوِيَّةٍ، وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ فِي «صِحَاحِهِ»: إِنَّهَا الْبُئْرُ الْمَطْوِيَّةُ
بِالْحِجَارَةِ، وَمِنْ إِطْلَاقِهَا عَلَى الْبُئْرِ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

وَهُمْ سَائِرُونَ إِلَى أَرْضِهِمْ ... فَيَا لَيْتَهُمْ يَخْفَرُونَ الرِّسَاسَا
وَقَوْلُ النَّابِغَةِ الْجَعْدِي:

سَبَقْتُ إِلَى فُرْطٍ نَاهِلٍ ... تَنَابِلَةً يَخْفَرُونَ الرِّسَاسَا

وَالرِّسَاسُ فِي الْبَيْتَيْنِ جَمْعُ رَسٍّ، وَهِيَ الْبُئْرُ، وَالرَّسُّ وَادٍ فِي قَوْلِ زُهَيْرٍ فِي
بَكَرَنَ بُكُورًا وَاسْتَحَزَنَ بِسُحْرَةٍ ... فَهِنَّ لَوَادِي الرِّسِّ كَالْيَدِ لِلْقَمِ

وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا، جَمْعُ قَرْنٍ، وَهُوَ هُنَا الْحَيْلُ مِنَ النَّاسِ الَّذِي اقْتَرَنُوا فِي الْوُجُودِ

فِي زَمَانٍ مِنَ الْأَزْمَنَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيرًا. ذَكَرَ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ كُلًّا مِنَ الْمَاضِينَ الْمُهْلَكِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، " (١)

"فَقَالَتْ أَلَا يَا أَسْمَعَ أَعْظَمُ بِحُطْبَةٍ ... فَقُلْتُ سَمِعْنَا فَاَنْطَقِي وَأَصِيبِي

يَعْنِي: أَلَا يَا هَذَا اسْمَعُ، وَأَنْشَدَ سَبِيحَتَهُ لِحَذْفِ الْمُنَادَى مَعَ ذِكْرِ أَدَاتِهِ، قَوْلَ الشَّاعِرِ:

يَا لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْأَقْوَامِ كُلِّهِمْ ... وَالصَّالِحِينَ عَلَى سَمْعَانَ مِنْ جَارِ

بِضَمِّ التَّاءِ مِنْ قَوْلِهِ: لَعْنَةُ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: فَيَا لَعْنَةُ اللَّعْنَةِ، يَعْنِي أَنَّ الْمُرَادَ: يَا قَوْمُ لَعْنَةُ اللَّهِ، إِلَى آخِرِهِ. وَأَنْشَدَ

صَاحِبُ اللِّسَانِ لِحَذْفِ الْمُنَادَى، مَعَ ذِكْرِ أَدَاتِهِ مُسْتَشْهِدًا لِقِرَاءَةِ الْكِسَائِيِّ الْمَذْكُورَةِ، قَوْلَ الشَّاعِرِ:

يَا قَاتِلَ اللَّهِ صَبِيَانًا تَجِيءُ بِهِمْ ... أُمُّ الْهَنَيْنِينَ مِنْ زَنْدِلِهَا وَارَى

ثُمَّ قَالَ: كَأَنَّهُ أَرَادَ: يَا قَوْمُ قَاتِلِ اللَّهِ صَبِيَانًا، وَقَوْلَ الْآخَرِ:

يَا مَنْ رَأَى بَارِقًا أَكْفَكِفُهُ ... بَيْنَ ذِرَاعَيْ وَجْبَتِهِ الْأَسَدِ

ثُمَّ قَالَ: كَأَنَّهُ دَعَا يَا قَوْمُ يَا إِخْوَتِي، فَلَمَّا أَقْبَلُوا عَلَيْهِ قَالَ: مَنْ رَأَى. وَأَنْشَدَ بَعْضُهُمْ لِحَذْفِ الْمُنَادَى مَعَ ذِكْرِ

أَدَاتِهِ، قَوْلَ عَنَتَرَةَ فِي **مُعَلَّقَتِهِ**:

يَا شَاةَ مَا قَنَصَ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ ... حُرْمَتٌ عَلَيَّ وَلَيْتَهَا لَمْ تَحْرُمَ

قَالُوا: التَّقْدِيرُ: يَا قَوْمُ انْظُرُوا شَاةَ مَا قَنَصَ.

وَأَعْلَمَ أَنَّ جَمَاعَةً مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، قَالُوا: إِنَّ يَا عَلَى قِرَاءَةِ الْكِسَائِيِّ، وَفِي جَمِيعِ الشُّوَاهِدِ الَّتِي ذَكَرْنَا لَيْسَتْ

لِلنِّدَاءِ، وَإِنَّمَا هِيَ لِلتَّنْبِيهِ فَكُلُّ مَنْ أَلَا وَيَا: حَرْفُ تَنْبِيهِ كُرِّرَ لِلتَّوَكِيدِ، وَمِمَّنْ رُوِيَ عَنْهُ هَذَا الْقَوْلُ: أَبُو الْحَسَنِ

بْنُ عُصْفُورٍ، وَهَذَا الْقَوْلُ اخْتَارَهُ أَبُو حَيَّانَ فِي «الْبَحْرِ الْمُحِيطِ»، قَالَ فِيهِ: وَالَّذِي أَذْهَبَ إِلَيْهِ أَنَّ مِثْلَ هَذَا

التَّرْكِيْبِ الْوَارِدِ عَنِ الْعَرَبِ لَيْسَتْ يَا فِيهِ لِلنِّدَاءِ، وَحُذِفَ الْمُنَادَى ؛ لِأَنَّ الْمُنَادَى عِنْدِي لَا يَجُوزُ حَذْفُهُ، لِأَنَّهُ

قَدْ حُذِفَ الْفِعْلُ الْعَامِلُ فِي النِّدَاءِ، وَأَنْحَذَفَ فَاعِلُهُ لِحَذْفِهِ، وَلَوْ حُذِفَ الْمُنَادَى لَكَانَ فِي ذَلِكَ حَذْفُ جُمْلَةٍ

النِّدَاءِ، وَحُذِفَ مُتَعَلِّقُهُ، وَهُوَ الْمُنَادَى، فَكَانَ ذَلِكَ إِخْلَالًا كَبِيرًا، وَإِذَا أَبْقَيْنَا الْمُنَادَى وَلَمْ نَحْذِفْهُ كَانَ ذَلِكَ

دَلِيلًا عَلَى الْعَامِلِ فِيهِ جُمْلَةُ النِّدَاءِ، وَلَيْسَ حَرْفُ النِّدَاءِ حَرْفُ جَوَابٍ كَنَعَمْ، وَلَا، وَبَلَى، وَأَجَلْ، فَيَجُوزُ حَذْفُ

الْجُمْلِ بَعْدَهُنَّ لِدَلَالَةِ مَا سَبَقَ مِنَ السُّؤَالِ عَلَى الْجُمْلِ الْمَحْذُوفَةِ، فَيَا عِنْدِي فِي تِلْكَ التَّرَاكِيْبِ حَرْفُ تَنْبِيهِ

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٥٤/٦

أَكَّدَ بِهِ أَلَا الَّتِي لِلتَّنْبِيهِ، وَجَازَ ذَلِكَ لِاخْتِلَافِ الْحَرْفَيْنِ وَلِقْصْدِ الْمُبَالَغَةِ فِي التَّوَكِيدِ، وَإِذَا كَانَ قَدْ وَجَدَ التَّوَكِيدَ فِي اجْتِمَاعٍ". (١)

"وَعَمُونَ جَمْعُ عَمٍ، وَهُوَ الْوَصْفُ مِنْ عَمِيَ يَعْمَى فَهُوَ أَعْمَى وَعَمٌّ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ [٧ \ ٦٤] وَقَوْلُ زُهَيْرٍ فِي مُعَلَّقَتِهِ:

وَأَعْلَمُ عِلْمَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ ... وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمٍ مَا فِي غَدٍ عَمٍ

قَوْلُهُ تَعَالَى: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ. وَمِنْ ذَلِكَ اخْتِلَافُهُمْ فِي عِيسَى، فَقَدْ قَدَّمْنَا فِي سُورَةِ «مَرْيَمَ»، ادِّعَاءَهُمْ عَلَى أُمِّهِ الْفَاحِشَةِ، مَعَ أَنَّ طَائِفَةً مِنْهُمْ آمَنَتْ بِهِ؛ كَمَا يُشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنَّا طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ [٦١ \ ٤١] وَالطَّائِفَةُ الَّتِي آمَنَتْ قَالَتْ الْحَقُّ فِي عِيسَى، وَالَّتِي كَفَرَتْ افْتَرَتْ عَلَيْهِ وَعَلَى أُمِّهِ، كَمَا تَقَدَّمَ إِيضَاحُهُ فِي سُورَةِ «مَرْيَمَ». وَقَدْ قَصَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي سُورَةِ «مَرْيَمَ» وَسُورَةِ «النِّسَاءِ» وَغَيْرِهِمَا، حَقِيقَةَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَهِيَ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ [١٩ \ ٣٠] وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاها إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ [٤ \ ١٧١] وَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُمْ حَقِيقَةَ أَمْرِهِ مُفَصَّلَةً فِي سُورَةِ «مَرْيَمَ» قَالَ: ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ [١٩ \ ٣٤] وَذَلِكَ يُبَيِّنُ بَعْضَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى هُنَا: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ. قَدْ قَدَّمْنَا الْآيَاتِ الْمَوْضِحَةَ لَهُ فِي أَوَّلِ سُورَةِ «الْكَهْفِ» فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ الْآيَةَ [١٨ \ ١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ. اعْلَمْ أَنَّ التَّحْقِيقَ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ الْقُرْآنِيَّةُ وَاسْتِفْرَاءُ الْقُرْآنِ أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى، لَا يَصِحُّ فِيهِ مِنْ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ، إِلَّا تَفْسِيرَانِ: الْأَوَّلُ: أَنَّ الْمَعْنَى: إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى، أَي: لَا تُسْمِعُ الْكُفَّارَ الَّذِينَ أَمَاتَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ، وَكَتَبَ عَلَيْهِمُ الشَّقَاءَ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ إِسْمَاعَ هُدًى وَانْتِفَاعَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الشَّقَاءَ، فَحَتَمَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَعَلَى سَمْعِهِمْ، وَجَعَلَ عَلَى قُلُوبِهِمُ الْأَكِنَّةَ، وَفِي آذَانِهِمُ الْوَقْرَ. (٢)

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ١١٤/٦

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ١٢٤/٦

"الْأَقْوَالِ.

وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّا قَدَّمْنَا الْكَلَامَ عَلَى ذَلِكَ مُسْتَوْفَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ هُودٍ.
وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ، قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ أَصْلَ الْقُرْآنِ مَصْدَرٌ، زِيدَ فِيهِ الْأَلِفُ
وَالنُّونُ. كَمَا زِيدَتَا فِي الطُّعْيَانِ، وَالرُّجْحَانِ، وَالْكَفْرَانِ، وَالْحُسْرَانِ، وَأَنَّ هَذَا الْمَصْدَرُ أُريدَ بِهِ الْوَصْفُ.
وَأَكْثَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ، يَقُولُونَ: إِنَّ هَذَا الْوَصْفَ الْمُعَبَّرَ عَنْهُ بِالْمَصْدَرِ هُوَ اسْمُ الْمَفْعُولِ.

وَعَلَيْهِ فَالْقُرْآنُ بِمَعْنَى الْمَقْرُوءِ مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ: قَرَأْتُ الشَّيْءَ إِذَا أَظْهَرْتُهُ وَأَبْرَزْتُهُ، وَمِنْهُ قَرَأَتِ النَّاقَةُ السَّلَا
وَالْجَنِينَ إِذَا أَظْهَرْتُهُ وَأَبْرَزْتُهُ مِنْ بَطْنِهَا، وَمِنْهُ قَوْلُ عَمْرِو بْنِ كُلْثُومٍ فِي **مُعَلَّقَتِهِ**:
ثُرَيْكَ إِذَا دَخَلْتَ عَلَى حَلَاءٍ وَقَدْ ... أَمِنْتُ عُيُونَ الْكَاشِحِينَ
ذِرَاعِي عَيْطِلٍ أَدْمَاءَ بَكْرِ ... هَجَانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينًا
عَلَى إِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ فِي الْبَيْتِ.

وَمَعْنَى الْقُرْآنِ عَلَى هَذَا الْمَقْرُوءِ الَّذِي يُظْهِرُهُ الْقَارِئُ، وَيُبْرِزُهُ مِنْ فِيهِ، بِعِبَارَاتِهِ الْوَاضِحَةِ.

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِنَّ الْوَصْفَ الْمُعَبَّرَ عَنْهُ بِالْمَصْدَرِ، هُوَ اسْمُ الْفَاعِلِ.

وَعَلَيْهِ فَالْقُرْآنُ بِمَعْنَى الْقَارِئِ، وَهُوَ اسْمُ فَاعِلٍ قَرَأْتُ، بِمَعْنَى جَمَعْتُ.

وَمِنْهُ قَوْلُ الْعَرَبِ: قَرَأْتُ الْمَاءَ فِي الْحَوْضِ أَيَّ جَمَعْتُهُ فِيهِ.

وَعَلَى هَذَا فَالْقُرْآنُ بِمَعْنَى الْقَارِئِ أَيِ الْجَامِعِ لِأَنَّ اللَّهَ جَمَعَ فِيهِ جَمِيعَ مَا فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ذِي الذِّكْرِ فِيهِ وَجْهَانِ مِنَ التَّفْسِيرِ مَعْرُوفَانِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ.

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الذِّكْرَ بِمَعْنَى الشَّرَفِ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ فُلَانٌ مَذْكُورٌ يَعْنُونَ لَهُ ذِكْرٌ أَيُّ شَرَفٌ.. " (١)

"قَوْلُهُ: إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا الْآيَةَ، هُوَ الْخِطَابُ بِصِغَةِ الْمُفْرَدِ، الَّذِي يُرَادُ بِهِ

عُمُومُ كُلِّ مَنْ يَصِحُّ خِطَابُهُ. كَقَوْلِ طَرْفَةَ بْنِ الْعَبْدِ فِي **مُعَلَّقَتِهِ**:

سَتُبْدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا ... وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ

أَيُّ سَتُبْدِي لَكَ وَيَأْتِيكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ الَّذِي يَصِحُّ خِطَابُكَ، وَعَلَى هَذَا فَلَا دَلِيلَ فِي الْآيَةِ، غَيْرَ صَحِيحٍ،

وَفِي سِيَاقِ الْآيَاتِ قَرِينَةٌ قُرْآنِيَّةٌ وَاضِحَةٌ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ الْمُخَاطَبَ بِذَلِكَ هُوَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَعَلَيْهِ

فَالْإِسْتِدْلَالُ بِالْآيَةِ، اسْتِدْلَالٌ قُرْآنِيٌّ صَحِيحٌ، وَالْقَرِينَةُ الْقُرْآنِيَّةُ الْمَذْكُورَةُ، هِيَ أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ فِي تِلْكَ الْأَوَامِرِ

وَالنَّوَاهِي الَّتِي خَاطَبَ بِهَا رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الَّتِي أَوْلَاهَا: وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٣٢٥/٦

الآية. مَا هُوَ صَرِيحٌ، فِي أَنَّ الْمُخَاطَبَ بِذَلِكَ هُوَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَا عُمُومٌ كُلِّ مَنْ يَصِحُّ مِنْهُ الْخُطَابُ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا [١٧ \ ٣٩] .

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا. قَدْ قَدَّمْنَا الْآيَاتِ الْمُوضِّحَةَ لَهُ فِي آخِرِ سُورَةِ الْحَجْرِ فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ [١٥ \ ٨٥] وَفِي آخِرِ سُورَةِ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ: أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا الْآيَةَ [٢٣ \ ١١٥]

قَوْلُهُ تَعَالَى: ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ. الْإِشَارَةُ فِي قَوْلِهِ ذَلِكَ رَاجِعَةٌ إِلَى الْمُضَدِّرِ الْكَافِرِ فِي الْفِعْلِ الصَّنَاعِيِّ، ذَلِكَ أَيْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَاطِلًا هُوَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِنَاءِ، وَالنَّفْيُ فِي قَوْلِهِ مَا خَلَقْنَا، مُنْصَبٌّ عَلَى الْحَالِ لَا عَلَى عَامِلِهَا الَّذِي هُوَ خَلَقْنَا، لِأَنَّ الْمَنْفِيَّ بِأَدَاةِ النَّفْيِ الَّتِي هِيَ مَا: لَيْسَ خَلْقُهُ لِلْسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، بَلْ هُوَ ثَابِتٌ، وَإِنَّمَا الْمَنْفِيُّ بِهِ، هُوَ كَوْنُهُ بَاطِلًا، فَهِيَ حَالٌ شَبَهُ الْعُمْدَةِ وَلَيْسَتْ فَضْلَةً صَرِيحَةً ؛ لِأَنَّ النَّفْيَ مُنْصَبٌّ عَلَيْهَا هِيَ خَاصَّةٌ، وَالْكَلَامُ لَا يَصِحُّ دُونَهَا. وَالْكَلَامُ فِي هَذَا مَعْلُومٌ فِي مَحَلِّهِ، وَنَفْيُ كَوْنِ خَلْقِهِ تَعَالَى لِلْسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَاطِلًا نَزَهَ عَنْهُ نَفْسُهُ وَنَزَهَهُ عَنْهُ عِبَادَةُ الصَّالِحِينَ، لِأَنَّهُ لَا يَلِيقُ بِكَمَالِهِ وَجَلَالِهِ تَعَالَى.

أَمَّا تَنْزِيهِهُ نَفْسَهُ عَنْهُ فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ [٢٣ \ ١١٥] .. (١)

"فَصَرَّحَ - تَعَالَى - عَنْهُمْ مُقَرَّرًا لَهُ أَنَّ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي سَلَكْتَهُمْ فِي سَقَرٍ - أَيْ أَذْخَلْتَهُمُ النَّارَ - عَدَمُ الصَّلَاةِ، وَعَدَمُ إِطْعَامِ الْمَسْكِينِ، وَعَدَدَ ذَلِكَ مَعَ الْكُفْرِ بِسَبَبِ التَّكْذِيبِ يَوْمَ الدِّينِ. وَنَظِيرُ ذَلِكَ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : خُذُوهُ فَعُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ [٦٩ \ - ٣٢] ثُمَّ بَيَّنَّ سَبَبَ ذَلِكَ فَقَالَ: إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلَا يَخْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ وَلَا وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ [٦٩ \ ٣٣ - ٣٦] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٣٤١/٦

قَوْلُهُ - تَعَالَى - : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ.

الْأَجْرُ جَزَاءُ الْعَمَلِ، وَجَزَاءُ عَمَلِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُوَ نَعِيمُ الْجَنَّةِ، وَذَلِكَ الْجَزَاءُ (غَيْرُ مَمْنُونٍ) أَيُّ غَيْرِ مَقْطُوعٍ، فَالْمَمْنُونُ اسْمٌ مَفْعُولٌ مِنْهُ بِمَعْنَى قَطْعِهِ، وَمِنْهُ قَوْلُ لَيْدِ بْنِ رَبِيعَةَ فِي **مُعَلَّقَتِهِ**:

لِمُعَقَّرٍ فَهَدٍ تَنَازَعَ شِلْوُهُ ... غُبْسٌ كَوَاسِبُ مَا يُمْنُ طَعَامُهَا

فَقَوْلُهُ: مَا يُمْنُ طَعَامُهَا، أَيُّ مَا يُقْطَعُ. وَقَوْلُ ذِي الْأَصْبُعِ:

إِنِّي لَعَمْرُكَ مَا بَابِي بِذِي غَلَقٍ ... عَلَى الصَّدِيقِ وَلَا خَيْرِي بِمَمْنُونٍ

وَمَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مِنْ أَنَّ أَجْرَهُمْ غَيْرُ مَمْنُونٍ - نَصَّ اللَّهُ - تَعَالَى - عَلَيْهِ فِي آيَاتٍ أُخَرَ مِنْ

كِتَابِهِ، كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - فِي آخِرِ سُورَةِ الْإِنْشِقَاقِ: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ

[٨٤ \ ٢٥] . وَقَوْلِهِ - تَعَالَى - فِي سُورَةِ التِّينِ: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ

[٩٥ \ ٦] . وَقَوْلِهِ - تَعَالَى - فِي سُورَةِ هُودٍ: وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ

السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْدُودٍ [١١ \ ١٠٨] .

فَقَوْلُهُ: (غَيْرُ مَجْدُودٍ) أَيُّ غَيْرِ مَقْطُوعٍ، وَبِهِ تَعْلَمُ أَنَّ (غَيْرَ مَجْدُودٍ) وَ (غَيْرَ مَمْنُونٍ) - مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ.

وَقَوْلِهِ - تَعَالَى - فِي «ص»: إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ [٣٨ \ ٥٤] أَيُّ مَا لَهُ مِنْ انْتِهَاءٍ وَلَا انْقِطَاعٍ.

وَقَوْلِهِ فِي «النَّحْلِ»: مَا عِنْدَ كُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ [١٦ \ ٩٦] .. (١)

"وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِيرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ الْآيَةُ [٣٥ \ ١٢] . وَالْآيَاتُ بِمِثْلِ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ مَعْلُومَةٌ.

وَقَرَأَ هَذَا الْحَرْفَ نَافِعٌ وَأَبُو عَمْرٍو (الْجَوَارِي) بِنَاءً سَاكِنَةً بَعْدَ الرَّاءِ فِي الْوَصْلِ فَقَطُّ دُونَ الْوَقْفِ، وَقَرَأَهُ ابْنُ

كَثِيرٍ بِالنِّبَاءِ الْمَذْكُورِ فِي الْوَصْلِ وَالْوَقْفِ مَعًا، وَقَرَأَهُ الْبَاقُونَ (الْجَوَارِ) بِحَذْفِ النِّبَاءِ فِي الْوَصْلِ وَالْوَقْفِ مَعًا.

قَوْلُهُ - تَعَالَى - : وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ.

قَرَأَ هَذَا الْحَرْفَ حَمَزَةٌ وَالْكَسَائِيُّ (كَبِيرَ الْإِثْمِ) ، بِكَسْرِ الْبَاءِ بَعْدَهَا يَاءٌ سَاكِنَةٌ وَرَاءَ عَلَى صِيغَةِ الْإِفْرَادِ.

وَقَرَأَهُ الْبَاقُونَ بِفَتْحِ الْبَاءِ بَعْدَهَا أَلْفٌ فَهَمَزَةٌ مَكْسُورَةٌ قَبْلَ الرَّاءِ عَلَى صِيغَةِ الْجَمْعِ.

وَقَوْلُهُ: وَالَّذِينَ فِي مَحَلِّ جَرٍّ عَطْفًا عَلَى قَوْلِهِ: وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ أَيُّ

وَخَيْرٌ وَأَبْقَى أَيْضًا لِلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ.

وَالْفَوَاحِشُ جَمْعُ فَاحِشَةٍ. وَالتَّحْقِيقُ - إِنَّ شَاءَ اللَّهُ - أَنَّ الْفَوَاحِشَ مِنْ جُمْلَةِ الْكَبَائِرِ.

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ١١/٧

وَالْأَظْهَرُ أَنَّهَا مِنْ أَشْنَعِهَا؛ لِأَنَّ الْفَاحِشَةَ فِي اللُّغَةِ هِيَ الْحَصْلَةُ الْمُتَنَاهِيَةُ فِي الْفُجْحِ، وَكُلُّ مُتَشَدِّدٍ فِي شَيْءٍ مُبَالِغٌ فِيهِ فَهُوَ فَاحِشٌ فِيهِ.

وَمِنْهُ قَوْلُ طَرْفَةَ بْنِ الْعَبْدِ فِي **مُعَلَّقَتِهِ**:

أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَابُ الْكَرَامَ وَيَصْطَفِي ... عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ
فَقَوْلُهُ: الْفَاحِشُ، أَيِ الْمُبَالِغِ فِي الْبُخْلِ الْمُتَنَاهِي فِيهِ.

وَمَا تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مِنْ وَعْدِهِ - تَعَالَى - الصَّادِقِ لِلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ بِمَا عِنْدَهُ لَهُمْ مِنَ الثَّوَابِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَأَبْقَى - جَاءَ مُوضَّحًا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، فَبَيَّنَ - تَعَالَى - فِي سُورَةِ «النِّسَاءِ» أَنَّ مِنْ ذَلِكَ تَكْفِيرُهُ - تَعَالَى - عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَإِذْخَالَهُمُ الْمُدْحَلَ الْكَرِيمَ وَهُوَ الْجَنَّةُ، فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى -: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا [٤ \ ٣١] . وَبَيَّنَ فِي سُورَةِ «النَّجْمِ» أَنَّهُمْ بِاجْتِنَابِهِمْ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ - يَصْدُقُ عَلَيْهِمْ اسْمُ الْمُحْسِنِينَ، وَوَعْدُهُمْ عَلَى ذَلِكَ بِالْحُسْنَى. (١)»

"قَالَ مُقْبِدُهُ - عَفَا اللَّهُ عَنْهُ وَعَفَّرَ لَهُ -: هَذَا النَّوعُ الَّذِي ذَكَرُوهُ مِنَ الْقَلْبِ فِي الْآيَةِ، كَقَلْبِ الْفَاعِلِ مَفْعُولًا، وَالْمَفْعُولِ فَاعِلًا، وَنَحْوِ ذَلِكَ - اِخْتَلَفَ فِيهِ عُلَمَاءُ الْعَرَبِيَّةِ، فَمَنَعَهُ الْبَلَاغِيُّونَ إِلَّا فِي التَّشْبِيهِ، فَأَجَازُوا قَلْبَ الْمُشَبَّهِ مُشَبَّهًا بِهِ وَالْمُشَبَّهِ بِهِ مُشَبَّهًا بِشَرْطِ أَنْ يَتَضَمَّنَ ذَلِكَ نُكْتَةً وَسِرًّا لَطِيفًا، كَمَا هُوَ الْمَعْرُوفُ عِنْدَهُمْ فِي مَبْحَثِ التَّشْبِيهِ الْمَقْلُوبِ.

وَأَجَازَهُ كَثِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ.

وَالَّذِي يَظْهَرُ لَنَا أَنَّهُ أُسْلُوبُ عَرَبِيٍّ نَطَقَتْ بِهِ الْعَرَبُ فِي لُغَتِهَا، إِلَّا أَنَّهُ يُحْفَظُ مَا سَمِعَ مِنْهُ، وَلَا يُقَاسُ عَلَيْهِ، وَمِنْ أَمْثَلَتِهِ فِي التَّشْبِيهِ قَوْلُ الرَّاجِزِ:

وَمَنْهَلٌ مُعْبَرَةٌ أَرْجَاؤُهُ ... كَأَنَّ لَوْنَ أَرْضِهِ سَمَاؤُهُ

أَيُّ كَأَنَّ سَمَاءَهُ لَوْنُ أَرْضِهِ، وَقَوْلُ الْآخَرِ:

وَبَدَا الصَّبَاحُ كَأَنَّ عُرَّتَهُ ... وَجْهَ الْخَلِيفَةِ حِينَ يُمْتَدِّحُ

لِأَنَّ أَصْلَ الْمُرَادِ تَشْبِيهُ وَجْهِ الْخَلِيفَةِ بِغُرَّةِ الصَّبَاحِ، فَقَلْبَ التَّشْبِيهِ لِيُوهِمَ أَنَّ الْفَرْعَ أَقْوَى مِنَ الْأَصْلِ فِي وَجْهِ الشَّبَّهِ.

قَالُوا: وَمِنْ أَمْثَلَتِهِ فِي الْقُرْآنِ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ [٢٨ \ ٧٦] ؛ لِأَنَّ

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٧٤/٧

الْغُصْبَةُ مِنَ الرِّجَالِ هِيَ الَّتِي تَنْوُءُ بِالْمَفَاتِيحِ، أَيْ تَنْهَضُ بِهَا بِمَشَقَّةٍ وَجُهِدٍ لِكَثْرَتِهَا وَثِقَلِهَا، وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -
:- فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ [٢٨ \ ٦٦] . أَيْ عَمُوا عَنْهُ . وَمِنْ أَمْثَلِهِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ قَوْلُ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ:

كَأَنَّ أَوْبَ ذِرَاعَيْهَا إِذَا عَرِفَتْ ... وَقَدْ تَلَقَّعَ بِالْقُورِ الْعَسَاقِيلِ

لِأَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: تَلَقَّعَ لَبَسَ اللَّفَاعَ وَهُوَ اللَّحَافُ، وَالْقُورُ: الْحِجَارَةُ الْعِظَامُ، وَالْعَسَاقِيلُ: السَّرَابُ.

وَالْكَلَامُ مَقْلُوبٌ ؛ لِأَنَّ الْقُورَ هِيَ الَّتِي تَلْتَحِفُ بِالْعَسَاقِيلِ لَا الْعَكْسُ، كَمَا أَوْضَحَهُ لَبِيدٌ فِي **مُعَلَّقَتِهِ** بِقَوْلِهِ:

فَبِتِلْكَ إِذْ رَقَصَ اللَّوَامِعُ بِالضُّحَى ... وَاجْتَابَ أُرْدِيَةَ السَّرَابِ إِكَامُهَا

فَصَرَّحَ بِأَنَّ الْإِكَامَ الَّتِي هِيَ الْحِجَارَةُ اجْتَابَتْ، أَيْ لَبَسَتْ، أُرْدِيَةَ السَّرَابِ.

وَالْأُرْدِيَةُ جَمْعُ رِدَاءٍ، وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الْقَلْبِ وَإِنْ أَجَارَهُ بَعْضُهُمْ فَلَا يَنْبَغِي حَمْلُ الْآيَةِ. (١)

"وَقَوْلُهُ: وَالْبَحْرُ الْمَسْجُورُ فِيهِ وَجْهَانِ مِنَ التَّفْسِيرِ لِلْعُلَمَاءِ. أَحَدُهُمَا أَنَّ الْمَسْجُورَ هُوَ الْمُوقَدُ نَارًا،

قَالُوا: وَسَيَضْطَرُّمُ الْبَحْرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَارًا، مِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى: ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ [٤٠ \ ٧٢] .

الْوَجْهُ الثَّانِي: هُوَ أَنَّ الْمَسْجُورَ بِمَعْنَى الْمَمْلُوءِ، لِأَنَّهُ مَمْلُوءٌ مَاءً، وَمِنْ إِطْلَاقِ الْمَسْجُورِ عَلَى الْمَمْلُوءِ قَوْلُ

لَبِيدِ بْنِ رَبِيعَةَ فِي **مُعَلَّقَتِهِ**:

فَتَوَسَّطًا عُرْضَ السَّرِيِّ وَصَدَعًا ... مَسْجُورَةً مُتَجَاوِرًا قُلَامُهَا

فَقَوْلُهُ: مَسْجُورَةً أَيْ عَيْنًا مَمْلُوءَةً مَاءً، وَقَوْلُ النَّمِرِ بْنِ تَوْلَبٍ الْعُكْلِيِّ:

إِذَا شَاءَ طَالَعَ مَسْجُورَةً ... تَرَى حَوْلَهَا النَّبْعَ وَالسَّاسِمَا

وَهَذَانِ الْوَجْهَانِ الْمَذْكُورَانِ فِي مَعْنَى الْمَسْجُورِ هُمَا أَيْضًا فِي قَوْلِهِ: وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ [٨١ \ ٦] ،

وَأَمَّا الْآيَةُ الْعَامَّةُ الَّتِي أَقْسَمَ فِيهَا تَعَالَى بِمَا يَشْمَلُ جَمِيعَ هَذِهِ الْأَقْسَامِ وَغَيْرِهَا، فَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: فَلَا أُقْسِمُ

بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ [٦٩ \ ٣٨ - ٣٩] ، لِأَنَّ الْأَقْسَامَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَامٌّ فِي كُلِّ شَيْءٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ، قَدْ قَدَّمْنَا الْآيَاتِ الْمُؤْضِحَةَ لَهُ فِي أَوَّلِ الذَّارِيَاتِ،

وَفِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَوَاضِعِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: يَوْمَ يُدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا هَذِهِ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ.

الدَّعُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ: الدَّفْعُ بِقُوَّةٍ وَعُنفٍ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ، أَيْ يَدْفَعُهُ عَنْ حَقِّهِ بِقُوَّةٍ

وَعُنفٍ، وَقَدْ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَمْرَيْنِ:

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٢٢٨/٧

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْكُفَّارَ يُدْفَعُونَ إِلَى النَّارِ بِقُوَّةٍ وَعُنْفٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُمْ يُقَالُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَوْبِيحًا وَتَقْرِيعًا: هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ [٥٢ \ ١٤] .

وَهَذَانِ الْأَمْرَانِ الْمَذْكُورَانِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ جَاءَا مُوَضَّحَيْنِ فِي آيَاتٍ أُخَرَ، أَمَّا (١) :

"يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ [٧٠ \ ٨ - ٩] ، وَأَصْلُ الْعِهْنِ أَحْصُ مِنْ مُطْلَقِ

الصُّوفِ لِأَنَّهُ الصُّوفُ الْمَصْبُوعُ خَاصَّةً. وَمِنْهُ قَوْلُ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلمَى فِي **مُعَلَّقَتِهِ**:

كَأَنَّ فِتَاةَ الْعِهْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ ... نَزَلْنَ بِهِ حَبَّ الْفَنَّا لَمْ يُحْطَمِ

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْجِبَالُ مِنْهَا جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ وَمُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ، فَإِذَا بُسِتَ وَفُتَّتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

وَطِيرَتْ فِي الْجَوِّ أَشْبَهَتْ الْعِهْنَ إِذَا طِيرَتْهُ الرِّيحُ فِي الْهَوَا، وَهَذَا الْوَجْهُ يَدُلُّ عَلَيْهِ تَرْتِيبُ كَيْنُونَتِهَا هَبَاءً مُنْبِتًا

بِالْفَاءِ عَلَى قَوْلِهِ: وَبُسِتِ الْجِبَالُ بَسًّا لِأَنَّ الْهَبَاءَ هُوَ مَا يَنْزِلُ مِنَ الْكُوَّةِ مِنْ شُعَاعِ الشَّمْسِ إِذَا قَابَلَتْهَا:

مُنْبِتًا أَيْ مُتَفَرِّقًا، وَوَصَفُهَا بِالْهَبَاءِ الْمُنْبِتِ أَنْسَبُ لِكَوْنِ الْبَسِّ بِمَعْنَى التَّفْقِيتِ وَالطَّحْنِ.

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: وَبُسِتِ الْجِبَالُ بَسًّا أَيْ سِيرَتْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَعَلَى هَذَا فَالْمُرَادُ بِبَسِّهَا

سَوْفُهَا وَتَسْيِيرُهَا مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ: بَسَسْتُ الْإِبِلَ أَبْسُهَا، بِضَمِّ الْبَاءِ وَأَبْسَسْتُهَا أَبْسُهَا بِضَمِّ الْهَمْزَةِ وَكَسْرِ الْبَاءِ،

لُغَتَانِ بِمَعْنَى سَفَّتُهَا، وَمِنْهُ حَدِيثُ: «يَخْرُجُ أَقْوَامٌ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى الْيَمَنِ وَالشَّامِ، وَالْعِرَاقِ يُبْسُونَ وَالْمَدِينَةَ خَيْرٌ

لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» .

وَهَذَا الْوَجْهُ تَشْهَدُ لَهُ آيَاتٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ الْآيَةَ [١٨ \ ٤٧] ، وَقَوْلِهِ:

وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا [٥٢ \ ١٠] .

وَقَدْ قَدَّمْنَا الْآيَاتِ الْمُوضَّحَةَ لِهَذَا فِي سُورَةِ النَّملِ فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ: وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ

تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ [٢٧ \ ٨٨] .

الْوَجْهُ الثَّالِثُ: أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: وَبُسِتِ الْجِبَالُ بَسًّا نَزَعَتْ مِنْ أَمَاكِنِهَا وَقُلِعَتْ، وَقَدْ أَوْضَحْنَا أَنَّ هَذَا الْوَجْهَ

رَاجِعٌ لِلْوَجْهِ الْأَوَّلِ مَعَ الْإِيضَاحِ التَّامِّ لِأَحْوَالِ الْجِبَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَطْوَارِهَا، بِالْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَفِي سُورَةِ «طه»

فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا [٢٠ \ ١٠٥] . وَقَوْلُهُ تَعَالَى

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبِتًا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا [٧٨ \ ٢٠] ،

وَالْهَبَاءُ إِذَا انْبَثَّ أَيْ تَفَرَّقَ وَاضْمَحَلَّ وَصَارَ لَا شَيْءَ، وَالسَّرَابُ قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ

يَجِدْهُ شَيْئًا [٢٤ \ ٣٩] .

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٤٥٢/٧

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً.. (١)

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْحَدِيدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

قَدْ قَدَّمْنَا مَرَارًا أَنَّ التَّسْبِيحَ هُوَ تَنْزِيهِ اللَّهِ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيْقُ بِكَمَالِهِ وَجَلَالِهِ، وَأَصْلُهُ فِي اللُّغَةِ الْإِبْعَادُ عَنِ الشُّوْءِ، مِنْ قَوْلِهِمْ سَبَّحَ إِذَا صَارَ بَعِيدًا، وَمِنْهُ قِيلَ لِلْفَرَسِ: سَابَحَ، لِأَنَّهُ إِذَا جَرَى يَبْعُدُ بِسُرْعَةٍ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ عَنَتْرَةٍ فِي **مُعَلَّقَتِهِ**:

إِذْ لَا أَرَاكَ عَلَى رِحَالَةٍ سَابَحٍ ... نَهَدِ تَعَاوُرَهُ الْكُمَاةَ مُكَلَّمٍ

وَقَوْلُ عَبَّاسِ بْنِ مِرْدَاسٍ السُّلَمِيِّ:

لَا يَغْرِسُونَ فَسِيلَ النَّخْلِ حَوْلَهُمْ ... وَلَا تَخَاوُرُ فِي مَشْتَاهُمُ الْبَقَرُ

إِلَّا سَوَابِحَ كَالْعُقْبَانِ مُقْرَبَةً ... فِي دَارَةٍ حَوْلَهَا الْأَخْطَارُ وَالْفِكَرُ

وَهَذَا الْفِعْلُ الَّذِي هُوَ «سَبَّحَ» قَدْ يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ بِدُونِ اللَّامِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا [٣٣ \ ٤٢] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: وَمَنْ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا [٧٦ \ ٢٦] ، وَقَدْ يَتَعَدَّى بِاللَّامِ كَقَوْلِهِ هُنَا: سَبَّحَ لِلَّهِ، وَعَلَى هَذَا فَسَبَّحَهُ وَسَبَّحَ لَهُ لُغَتَانِ كَنَصَحَهُ وَنَصَحَ لَهُ. وَشَكَرَهُ وَشَكَرَ لَهُ، وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ فِي الْآيَةِ وَجْهًا آخَرَ، وَهُوَ أَنَّ الْمَعْنَى: سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَيْ أَحَدَثَ التَّسْبِيحَ لِأَجْلِ اللَّهِ أَيْ ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ تَعَالَى، ذَكَرَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ وَأَبُو حَيَّانَ، وَقِيلَ: سَبَّحَ لِلَّهِ أَيْ صَلَّى لَهُ.

وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ التَّسْبِيحَ يُطْلَقُ عَلَى الصَّلَاةِ، وَمَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مِنْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُسَبِّحُونَ لِلَّهِ، أَيْ يُنْزِلُونَهُ عَمَّا لَا يَلِيْقُ - بَيْنَهُ اللَّهُ - جَلًّا وَعَلَا - فِي آيَاتٍ أُخَرَ مِنْ كِتَابِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْحَشْرِ: سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ الْآيَةُ [٥٩ \ ١] ، وَقَوْلُهُ فِي الصَّفِّ: سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ الْآيَةُ [٦١ \ ١] ، وَقَوْلُهُ فِي الْجُمُعَةِ: يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ الْآيَةُ [٦٢ \ ١] ، وَقَوْلُهُ فِي التَّغَابُنِ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الْآيَةُ

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٥١٢/٧

[٦٤ \ ١] .

وَزَادَ فِي سُورَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضَ يُسَبِّحْنَ لِلَّهِ مَعَ مَا فِيهِنَّ. " (١)
"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

سُورَةُ الْجِنِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا

فِيهِ إِثْبَاتُ سَمَاعِ الْجِنِّ لِلْقُرْآنِ وَإِعْجَابِهِمْ بِهِ، وَهَدَايَتِهِمْ بِهِدْيِهِ، وَإِيمَانِهِمْ بِاللَّهِ. وَتَقَدَّمَتِ الْإِشَارَةُ بِذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الشَّيْخِ - رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْنَا وَعَلَيْهِ - فِي سُورَةِ «الْأَحْقَافِ» عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ [٤٦ \ ٢٩] ، وَفِي آيَةِ «الْأَحْقَافِ» بَيَانٌ لِمَا قَامَ بِهِ النَّفَرُ مِنَ الْجِنِّ بَعْدَ سَمَاعِهِمُ الْقُرْآنَ، بِأَنَّهُمْ لَمَّا قُضِيَ سَمَاعُهُمْ وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ.

وَفِيهَا: بَيَانٌ أَنَّهُمْ عَالِمُونَ بِكِتَابِ مُوسَى وَهُوَ التَّوْرَةُ، وَقَدْ شَهِدُوا بِأَنَّ الْقُرْآنَ مُصَدِّقٌ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَنَّهُ يَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، كَمَا جَاءَ هُنَا قَوْلُهُ: يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَأَنَّهُ كَانَ يَفُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا

وَالشَّطَطُ: الْبَعِيدُ الْمُفْرَطُ فِي الْبُعْدِ، قَالَ عَنَتَرَةُ فِي **مُعَلَّقَتِهِ**:

شَطَطْتُ مَزَارَ الْعَاشِقِينَ فَأَصْبَحْتُ ... عِسْرًا عَلَى طُلَابِهَا ابْنَةُ مَحْرَمٍ

وَرُوي:

حَلَّتْ بِأَرْضِ الزَّائِرِينَ فَأَصْبَحْتُ

وَأَنْشَدَ أَيْضًا لِعَيْرِهِ:

شَطَّ الْمَزَارُ بِجَذْوِي وَانْتَهَى الْأَمَلُ

فَفِي كِلَا الْبَيْتَيْنِ الشَّطَطُ: الْإِفْرَاطُ فِي الْبُعْدِ، إِذْ فِي الْأَوَّلِ قَالَ: فَأَصْبَحْتُ عِسْرًا عَلَى طُلَابِهَا، وَفِي الثَّانِي

قَالَ: وَانْتَهَى الْأَمَلُ، وَقَدْ بَيَّنَّ الْقُرْآنُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالشَّطَطِ الْبُعْدُ الْخَاصُّ، " (٢)

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٥٤٠/٧

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٣١٧/٨

"وَقَوْلُهُ: أَقْسِمُ: إِثْبَاتٌ مُسْتَأْنَفٌ.

وَقِيلَ: إِنَّ هَذَا الْوَجْهَ، وَإِنْ قَالَ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ، إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ بِوَجْهِ عِنْدِي؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْقِيَامَةِ: وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُرِدِ الْإِثْبَاتَ الْمُسْتَأْنَفَ بَعْدَ النَّفْيِ بِقَوْلِهِ «أَقْسِمُ» وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الْوَجْهُ الثَّلَاثُ: أَنَّهَا حَرْفٌ نَفْيٌ أَيْضًا، وَوَجْهُهُ أَنَّ إِنْشَاءَ الْقَسَمِ يَتَضَمَّنُ الْإِحْبَارَ عَنْ تَعْظِيمِ الْمُقْسَمِ بِهِ. فَهُوَ نَفْيٌ لِذَلِكَ الْحَبَرِ الضَّمْنِيِّ عَلَى سَبِيلِ الْكِنَايَةِ. وَالْمُرَادُ أَنَّهُ لَا يُعْظَمُ بِالْقَسَمِ، بَلْ هُوَ فِي نَفْسِهِ عَظِيمٌ أَقْسَمَ بِهِ أَوَّلًا. وَهَذَا الْقَوْلُ ذَكَرَهُ صَاحِبُ الْكَشَافِ وَصَاحِبُ رُوحِ الْمَعَانِي، وَلَا يَحُلُو عِنْدِي مِنْ نَظَرٍ.

الْوَجْهُ الرَّابِعُ: أَنَّ اللَّامَ لَامُ الْإِبْتِدَاءِ، أُشْبِعْتُ فَتَحْتُهَا. وَالْعَرَبُ رُبَّمَا أَشْبَعَتِ الْفَتْحَةَ بِالْفِ، وَالْكَسْرَةَ بِيَاءٍ، وَالضَّمَّةَ بِوَاوٍ. وَمِثَالُهُ فِي الْفَتْحَةِ قَوْلُ عَبْدِ يَعُوثَ بْنِ الْحَارِثِ:

وَتَضْحَكُ مِنِّي شَيْخَةٌ عَبْشَمِيَّةٌ ... كَأَنَّ لَمْ تَرَى قَبْلِي أَسِيرًا يَمَانِيًا
فَالْأَصْلُ: كَأَنَّ لَمْ تَرِ، وَلَكِنَّ الْفَتْحَةَ أُشْبِعْتُ.

وَقَوْلُ الرَّاجِزِ:

إِذَا الْعَجُوزُ غَضِبَتْ فَطَلَّقِ ... وَلَا تَرْضَاهَا وَلَا تَمَلِّقِ

وَقَوْلُ عَنَتَرَةَ فِي **مُعَلَّقَتِهِ**:

يَنْبَاغُ مِنْ ذِفْرِي غَضُوبٍ جَسْرَةٍ ... زَيَّافَةٍ مِثْلِ الْعَتِيقِ الْمُكْدَمِ

فَالْأَصْلُ يَنْبَغُ، يَعْنِي الْعَرَقَ، يَنْبَغُ مِنَ الذِّفْرِ: مِنْ نَاقَتِهِ، فَأُشْبِعَتِ الْفَتْحَةُ فَصَارَتْ يَنْبَاغُ، وَقَالَ: لَيْسَ هَذَا الْإِشْبَاعُ مِنْ ضَرُورَةِ الشِّعْرِ.

ثُمَّ سَأَلَ الشَّوَاهِدَ عَلَى الْإِشْبَاعِ بِالضَّمَّةِ وَالْكَسْرَةِ، ثُمَّ قَالَ: يَشْهَدُ لِهَذَا الْوَجْهِ قِرَاءَةُ قُنْبُلٍ: «لَأُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ» بِلَامِ الْإِبْتِدَاءِ، وَهُوَ مَرْوِيُّ عَنِ الْبَرْزِيِّ وَالْحَسَنِ. وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى أَه. مُلْحَظًا.

فَأَنْتَ تَرَى أَنَّهُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَدَّمَ فِيهَا أَرْبَعَةَ أَوْجُهٍ: صِلَةً، وَنَفْيَ الْكَلَامِ قَبْلَهَا، وَتَأْكِيدًا. (١)

"وقوله: ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ تقول العرب: سامه خسفا، إذا أولاه ظلما، وأذاقه عذابا، ومن

هذا المعنى قول عمرو بن كلثوم في **مُعَلَّقَتِهِ** (١):

إذا ما الملك سام الناس ... خسفا أبينا أن نقر الذل فينا

وقوله: ﴿سوء العذاب﴾ أي: يذيقونكم ويولونكم سوء العذاب، أي: أصعب العذاب وأشدّه وأفضعه؛ لأنهم

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٣٧١/٨

كانوا يعذبونهم بأنواع من العذاب شاقة ذكر الله بعضا منها هنا حيث قال: ﴿يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾ فالفعل المضارع الذي هو ﴿يذبحون﴾ بدل من الفعل المضارع الذي قبله (٢) الذي هو ﴿يسومونكم﴾ على حد قوله في الخلاصة (٣):

ويبدل الفعل من الفعل كمن ... يصل إلينا يستعن بنا يعن

وإنما عبر بالتشديد في قراءة الجمهور في قوله: ﴿يذبحون﴾ دلالة على الكثرة؛ لأنهم ذبحوا كثيرا من أبناءهم (٤). ﴿يذبحون أبناءكم﴾ أي: الذكور ﴿ويستحيون نساءكم﴾ أي: بناتكم الإناث، ييقوهن حيات، ولم يذبحوهن. والنساء على التحقيق اسم جمع (٥) لا واحد له من لفظه، واحدته امرأة.

(١) شرح القصائد المشهورات (٢ / ١٢٤).

(٢) انظر: الدر المصون (١ / ٣٤٥ - ٣٤٦).

(٣) الخلاصة ص ٤٩، وانظر: شرحه في الأشموني (٢ / ١٣٣).

(٤) انظر: القرطبي (١ / ٣٨٥، ٣٨٦).

(٥) اسم الجمع: ما دل على آحاده دلالة الكل على أجزائه، والغالب أنه لا واحد له من لفظه، نحو: (قوم، رهط، طائفة، جماعة) انظر: حاشية الصيان (١ / ٢٩) .. " (١)

"يعني أخرجهن من جحورهن؛ لأن جحور الحشرات تسمى أنفاقا، واحدها نفق. والسلم: هو المصعد إلى الشيء، معروف في كلام العرب. والسلم إلى السماء: المصعد الذي يصعد فيه إلى السماء (١). ومنه قول زهير في **معلقته** (٢):

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماء بسلم

وكل مصعد يصعد فيه الإنسان تسميه العرب سلما، ولو كان معنويا، فالشيء الذي يرتقى به إلى الأمر - ولو معنويا غير محسوس - تقول له العرب: سلم، ومنه قول الحطيئة (٣):

الشعر صعب وطويل سلمه إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه

زلت به إلى الحضيض قدمه

وقوله جل وعلا: ﴿فإن استطعت أن تبغني نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيتهم﴾ هذا الفعل المضارع منصوب؛ لأنه معطوف على فعل منصوب، والمضارع المعطوف على منصوب ينصب. والأول المنصوب

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ٧١/١

قوله: ﴿فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ﴾ فقلوه: ﴿تَبْتَغِيَ﴾ منصوب بـ (أَنْ). وقوله: ﴿فَتَأْتِيهِمْ﴾ معطوف عليه، ﴿فَتَأْتِيهِمْ بِآيَةٍ﴾ قاهرة تقهرهم بها فافعل إن قدرت، وإن لم تقدر على ذلك فهون عليك، واعلم أن أمرهم بيد الله، هداهم بيده وحسابهم عليه، فهون عليك. ثم إن الله قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ﴾ هذا الهدى الذي يؤسفك أن لم يهتدوا هو بيد الله، لو شاء ربك ﴿لَجَمَعَهُمْ عَلَى

(١) مضى قريبا.

(٢) انظر: شرح القصائد المشهورات (١/ ١٢٢).

(٣) ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت ص (٢٩١).. " (١)

"ب (الواو) - كما هنا - كثير جدا، ومنه قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا﴾ [التوبة: آية ٣٥] وقوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا﴾ [البقرة: آية ٤٥] وقوله جل وعلا: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: آية ٦٢] وقول جل وعلا: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ [الأنفال: آية ٢٠] وهو كثير في القرآن، ومن أمثله في كلام العرب قول نابغة ذبيان (١): وقد أراني ونعما لاهيين بها ... والدهر والعيش لم يههم بإمرار ولم يقل: «يهمما». وقول الآخر (٢):

إن شرخ الشباب والشعر الأس ... ود ما لم يعاص كان جنونا ولم يقل: (ما لم يعاصيا). هذا كثير في كلام العرب.

ومن أمثله في المتعاطفات بالفاء: قول امرئ القيس في **معلقته** (٣):

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

(٢) البيت لحسان (رضي الله عنه)، وهو في الموضع السابق.

(٣) هذا هو الشطر الأول من البيت، وأما شطره الثاني فقلوه:

..... لما نسجتها من جنوب وشمأل

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ١/ ١٩٠

وقبله:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل
وسقط اللوى: منقطع الرمل، والدخول وحومل. قيل إنهما موضعان في شرق اليمامة.
وتوضح والمقراة: قيل إنهما موضعان قريبان من الدخول وحومل.
انظر: ديوانه ص ١١٠.. (١)

"سرا في خفية. كل هذا يسمى وحيا. ومن إطلاق الوحي على الإشارة قوله في قصة زكريا: ﴿فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا﴾ (١١) ﴿[مريم: آية ١١] أي: أشار إليهم على أظهر التفسيرين. ويؤيده قوله: ﴿ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا﴾ [آل عمران: آية ٤١] لأن الرمز: الإشارة. فدل على أن الوحي في حقه: الإشارة. ويطلق الوحي على الكتابة، وإطلاق الوحي على الكتابة كثير في كلام العرب جدا، ومنه قول لبيد في **معلقته** (١):

فمدافع الريان عري رسمها ... خلقا كما ضمن الوحي سلامها

ف (الوحي): جمع (وحي)، وهو الكتابة في الحجارة. وهذا معروف في كلام العرب بكثرة، ومنه قول عنتره (٢):

كوحى الصحائف من عهد كسرى ... فأهداها لأعجم طمطمي

ومنه قول غيلان ذي الرمة (٣):

سوى الأربع الدهم اللواتي كأنها ... بقية وحي في بطون الصحائف

أي: كتابة. وكذلك منه قول جرير (٤):

كأن أخا الكتاب يخط وحيا ... بكاف في منازلها ولام

أي: خطأ.

(١) البيت في شرح القصائد المشهورات (١ / ١٣٠)، اللسان (مادة: وحي) (٣ / ٨٩٢).

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ٢٧٣/١

(٢) البيت في فتح القدير (٣ / ٣٢٤).

(٣) السابق.

(٤) البيت في ديوانه ص ٣٧٥، وشطره الأول: (كأن أخا اليهود ...) (١)

"فهو أسلوب عربي، يخاطب الإنسان إنسانا لينقل الخطاب بواسطته إلى غيره، والقرآن بلسان عربي مبين، ولا سيما أن النبي - صلى الله عليه وسلم - هو المشرع، فما أمر به أو نهى عنه صار مشرعا لأُمَّته (صلوات الله وسلامه عليه) ولذا قال هنا: ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ [الأنعام: آية ١١٤] وقالت جماعة من أهل العلم: الخطابات في قوله: ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ (١١٤) ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ [الزمر: آية ٦٥] كالخطاب العام الموجه لجميع الناس وإن كان لفظه مفردا (١)، كما هو معروف، كقول طرفة بن العبد (٢):

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فإن هذا الخطاب لفظه كأنه مفرد، ومعناه عام موجه لكل من يصح منه الخطاب. هذا معنى قوله: ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ (١٤٧) أي: لا تكونن يا نبي الله. أي: يا مخاطب ممن يصح منه الخطاب: ﴿من الممترين﴾ (٤٩) أي: في الشاكين في أن هذا الكتاب منزل من الله. أي: لا تكونن من الممترين في أن الذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق.

﴿وتمت كلمت ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم﴾ (١١٥) [الأنعام: آية ١١٥] ﴿وتمت كلمت ربك صدقا وعدلا﴾ قرأ هذا الحرف جمهور القراء ما عدا الكوفيين الثلاثة، قرأه من السبعة: نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر كلهم قرؤوا: ﴿وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا﴾ بصيغة الجمع، وقرأه الكوفيون، أعني: عاصما وحمزة والكسائي: ﴿وتمت كلمت ربك صدقا وعدلا﴾

(١) انظر: البحر المحيط (٤ / ٢٠٩).

(٢) البيت من **معلقته**. وهو في شرح القصائد المشهورات (١ / ٩٤) .. (٢)

"بلغ نهايته تسميه فاحشة (١).

والفاحشة في اصطلاح الشرع: الخصلة المتناهية في القبح (٢)، فكل خصلة تناهت وبلغت غايتها في

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ١٤٨/٢

(٢) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ١٧٣/٢

القبح [تسميها] (٣) العرب فاحشة، ومن قال: إن أكثر إطلاقها في القرآن على الزنا ودلالة اللسان (٤)، فهو خلاف التحقيق؛ لأن الفاحشة تطلق على كل خصلة رديئة بالغة في القبح والفحش، هذه هي الفاحشة، وكل بالغ غايته في الشيء فهو فاحش، وهذا معروف في كلام العرب، ومنه قول طرفة بن العبد في **معلقته** (٥):

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي ... عقيلة مال الفاحش المتشدد

يعني بقوله: (الفاحش) البالغ غاية الحرص على ماله، و (الفواحش) هي السيئات العظام المتناهية في القبح، نهى الله خلقه عن أن يقربوا من كل خصلة سوء قبيحة يحرمها الشرع ويحذر الله منها، ثم عمم هذا تعميما عظيما فقال: ﴿ما ظهر منها وما بطن﴾ [الأنعام: آية ١٥١] فقله: ﴿ما﴾ بدل من (الفواحش) و ﴿وما بطن﴾ عطف عليه، والمعنى: احذروا كل الحذر، وتجنبوا كل التجنب جميع الفواحش، سواء في ذلك ما هو ظاهر

(١) انظر: المصباح المنير (مادة: فحش) ص (١٧٦)، المفردات (مادة: فحش) (٦٢٦).

(٢) انظر: الكليات ص (٦٧٥).

(٣) في هذا الموضع وقع مسح في التسجيل، وما بين المعقوفين [] زيادة يتم بها الكلام.

(٤) انظر: الكليات ص (٦٧٤).

(٥) شرح القصائد المشهورات (١/ ٨٣) .. " (١)

"السماء إلا عملا يبيض وجهه، ويرضي الله، ثم يكون مرضيا ضميره، أما الذي يلغي هذه الأوامر، ويتنازل إلى هذه الخسة لينال عرضا قليلا من الدنيا فهذا ساقط المروءة والدين، وهو عند الله في شر مكانة -والعياذ بالله- ألا ترون أن عنترة بن شداد كافر لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ولم يأت نذير، بل هو جاهلي، إلا أن عنده ضميرا حيا وشيمة عربية، يقول في **معلقته** (١):
ولقد أبيت على الطوى وأظله ... حتى أنال به كريم المأكَل

فالذي يكون غير محتاج، وهو يقع في هذه المآثم الخسيسة، هذا لا ينبغي، فنحن نحذر منه إخواننا،

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ٤٨٢/٢

ونرجو الله لنا وللجميع أن يوفقهم إلى ما يرضيه من نزاهة تليق، ومعاملة سليمة، والقيام بالخدمة على الوجه اللائق الذي يرضي الله، ويرضي الضمير الإنساني، ويرضي ولي الأمر الذي جعل الشخص ممثلاً له في ذلك المحل، والآية عامة.

هذا معنى: ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله﴾ [الأنعام: آية ١٥١] لا شك أن قتل النفس التي حرم الله أنه داخل في (الفواحش) إن فعله علناً أمام الناس فهو داخل فيما ظهر، وإن قتله غيلة من حيث لا يراه الناس فهو داخل فيما بطن؛ لأن قتل النفس من الفواحش، والله (جل وعلا) خصه مع أنه داخل في العموم، وفي ذلك حكمتان (٢): أحدهما: تفضيع القتل وتهويل أمره؛ لأن الله يقول: ﴿ومن

(١) ديوان عنترة ص (٩٨).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤ / ٢٥٢)، الدر المصون (٥ / ٢١٩) .. " (١)

"فرعون يكتُم إيمانه" [غافر: آية ٢٨] فبدأ بالنعته بقوله: ﴿مؤمن﴾ لأنه مفرد، ثم أتبعه بشبه الجملة، وهي: ﴿من آل فرعون﴾ ثم أتبعه بالجملة ﴿يكتُم إيمانه﴾ هذا هو الأصل المقرر في المعاني، وربما قدم النعت بغير الجملة، وربما قدم النعت بغير المفرد على النعت بالمفرد، فمثال تقديمه بشبه الجملة: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين﴾ فالجار والمجرور نعت قدم على النعت المفرد في قوله: ﴿عظيم﴾ [الزخرف: آية ٣١] ومثال تقديم الجملة على المفرد قوله هنا: ﴿كتاب أنزلناه مبارك﴾ فجملة ﴿أنزلناه﴾ نعت قدم على النعت بالمفرد، ونظيره من كلام العرب قول طرفة بن العبد (١): وفي الحي أحوى ينفض المرد شادن ... مظاهر سمطي لؤلؤ وزبرجد

فإن قوله: (شادن ومظاهر) مفردان، قدم قبلهما النعت بالجملة في قوله: (ينفض المرد) وهذا معروف (٢). وقوله: ﴿مبارك﴾ معناه: أن هذا الكتاب مبارك، أي: كثير البركات، والخيرات، فمن تعلمه وعمل به غمرته الخيرات في الدنيا والآخرة؛ لأن ما سماه الله مباركا فهو كثير البركات والخيرات قطعاً، وكان بعض علماء التفسير يقول: اشتغلنا بالقرآن فغمرتنا البركات والخيرات في الدنيا؛ تصديقا لقوله: ﴿كتاب أنزلناه مبارك﴾ ونرجو أن يكون لنا مثل ذلك في الدنيا، وهذا الكتاب المبارك لا ييسر الله للعمل به إلا الناس الطيبين

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ٤٨٧/٢

المباركين، فإنه كثير البركات والخيرات؛

(١) البيت في **معلقته**. وقوله: (أحوى): هو ظبي في ظهره خطتان خضراوان، و (المرد): ثمر الأراك، و (شادن): ظبي ليس بالكبير، و (مظاهر): قد جمع بين اللؤلؤ والزبرجد. انظر: شرح القصائد المشهورات (١/ ٥٦).

(٢) انظر: النحو الوافي (٣/ ٤٩٦ - ٤٩٧) .. " (١)

"الخطأ فلا إثم فيه قطعاً. قالوا: هذا رجل مسلم لزمته دية، وهو لم يقصد سوءاً، ولم يقصد بها ذنباً ولا جريمة، فالله (جل وعلا) أمر عاقلته من أهل ديوانه -ممن يقول بالديوان- أو من عصيته -ممن يقصرها على العصبة- أمرهم أن يساعده، وخالق السماوات والأرض يدبر على البعض من البعض، ويأمر البعض بمساعدة البعض؛ إكراماً وجرياً على مكارم الأخلاق، كما أمر بأن تؤخذ الزكاة من أغنيائنا وترد على فقرائنا، فهذه إعانة محض، ومكارم أخلاق جاء القرآن بها معاونة لذلك الإنسان، كما أوجب الزكاة؛ مساعدة للفقير، وما جرى مجرى ذلك.

أما حديث ابن عمر فللعلماء عنه أجوبة كثيرة (١)، منها: أنهم حملوه على الميت الذي أوصاهم أن يبكوا عليه؛ أي: عرف أنهم إذا مات يكون عليه ولم ينههم، وكانت هذه عادة العرب، ويوضحه قول طرفة بن العبد في **معلقته** (٢):

فإن مت فانعيني بما أنا أهله ... وشقي علي الجيب يا ابنة معبد

فهذا إذا شقت عليه الجيب وبكت عليه فلا إشكال في تعذيبه ببكائها؛ لأنه أمره بها في الدنيا وهو من فعله، وكذلك من علم أنه إذا مات يفعلونه ولم ينههم، فهو متسبب بعدم نهيمهم. وقال بعض العلماء: تعذيبه ببكاء أهله أن أهله إذا بكوا عليه أن الله يطلعه على ذلك ويأسف ويحزن من حزن أهله، إلى غير ذلك من الأقوال، وأظهرها الأول، وهذا معنى قوله: ﴿ولا تكسب كل نفس

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ٥٣١/٢

(١) انظر: فتح الباري (٣/ ١٥٢ - ١٥٥)، أحكام الجنائز للألباني ص ٤١ - ٤٢.

(٢) شرح القصائد المشهورات (١/ ٩٢) .." (١)

"لأن ليس بعدها محطة أخرى ينتقل إليها. وهذا إيضاح معنى (الآخرة).

وقوله: ﴿كافرون﴾ أي: جاحدون. أصل الكفر في لغة العرب هو: الستر والتغطية، وكل شيء سترته وغطيته فقد كفرته. وهذا معروف في كلام العرب، ومنه قيل للزراع: كفار؛ لأنهم يكفرون البذر في بطن الأرض، يسترونه ويغطونه. وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول لبيد في **معلقته** (١):

يعلو طريقة متنها متواتر ... في ليلة كفر النجوم غمامها

يعني: سترها وغطاها غمامها. ومن هنا قيل لليل: كافر؛ لأنه يكفر الأجرام ويغطيها بظلامه ومنه قول لبيد في **معلقته** (٢):

حتى إذا ألفت يدا في كافر ... وأجن عورات الثغور ظلامها

كما هو معروف، وإنما سمي الكافر كافرا لأنه يجحد نعم الله، ويجحد آياته، ويريد أن يغطيها بالجحود والكفر والعياذ بالله. وهذا معنى قوله: ﴿وهم بالآخرة كافرون﴾ [الأعراف: آية ٤٥].

قال تعالى: ﴿وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون (٤٦) وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين (٤٧) ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون (٤٨) أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون (٤٩) ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا

(١) شرح القصائد المشهورات (١/ ١٥٢).

(٢) شرح القصائد المشهورات (١/ ١٦٦) .." (٢)

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ٦٣٤/٢

(٢) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ٢٨٢/٣

"المرفوعات من كلام العرب قول لبيد بن ربيعة في **معلقته** (١):

فعلا فروع الأيهقان وأطفلت ... بالجلهتين ظباؤها ونعامها

لأن النعام لا يطفل، وإنما هو يبيض حتى بعد ذلك ينفلق البيض عن الأطفال. هكذا قال بعضهم، والتحقيق أن إفاضة الشيء وإلقاءه بكثرة قد يكون في المائعات وغير المائعات، وقد أطلقه الله على الآدميين المفيضين من عرفات وهم ليسوا من المائعات، كما قال: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ [البقرة: آية ١٩٩] ﴿فإذا أفضتم من عرفات﴾ [البقرة: آية ١٩٨] والعرب تقول: «أفاض علينا من طعامه، وأفاض علينا من رزقه». إذا أكثر، كما هو معروف. فلا حاجة إلى هذا التقدير الذي ذهب إليه كثير من المفسرين. ﴿أو مما رزقكم الله﴾ من مآكل الجنة ومشاربها، يطلبونها ويستجدونها. قال بعض العلماء: يسألون مع اليأس. وقال بعضهم: لهم طمع لشدة ما هم فيه. فأجابهم المؤمنون في الجنة، فقالوا: ﴿إن الله حرمهما﴾ أي: الشيئين اللذين [سألتهم] (٢)، وهما: الماء وما رزقنا الله من نعيمه غير الماء. ﴿حرمهما على الكافرين﴾ [الأعراف: آية ٥٠] والتحريم هنا تحريم كوني قدرتي، أي: منعهما من الكافرين؛ لأن التحريم يطلق

(١) شرح القصائد المشهورات (١ / ١٣٢). وقوله: «الأيهقان» جمع أيهقانة، وهو الجرجير البري. وقوله: «وأطفلت» أي: كثر أطفالها. والجلهتان: جانبا الوادي. والمعنى: أن الشاعر يصف ديارا خلت من أهلها فنما فيها الجرجير البري وارتفع وكثر أولاد الوحش بها لأمنها فيها.

(٢) في الأصل: «سألتما».. (١)

"بادية الفرج، فلا شك أن الشباب الذي ليس عقله مزموما بإيمان كامل، وورع ومروءة تامة أن ذلك يحرك غريزته ويهيج طبيعته، فتراهم كثيرا يسافرون باسم العلاج، وباسم كذا وكذا من الأعذار الكاذبة، وإنما مقصدهم في الحقيقة هو أن يشبعوا رغباتهم الغريزية مما عاينوا منتشرا من الفساد في قعر بلادهم نعوذ بالله من ذلك، وهذا معنى قوله: ﴿لقد أرسلنا نوحا إلى قومه﴾ [الأعراف: آية ٥٩].

ذكر بعض العلماء أن قوم نوح كانوا خلقا كثيرا منتشرين في أقطار الدنيا. وبعضهم يقول: إنهم كانوا في بعض الأرض دون بعضها. ولم يقم دليل صحيح على عددهم وكثرتهم، وهل كانوا يشغلون جميع نواحي المعمورة أو بعضها منها؟ ولم يأت من هم. والله في القرآن لم يسمهم إلا بقوم نوح. ﴿لقد أرسلنا نوحا إلى

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ٣/ ٣٠٥

قومه ﴿يعني: بعد أن عبدوا الأصنام، وعبدوا صور أولئك الصالحين: ودا ويغوث ويعوق ونسرا، وبعد أن فعلوا ذلك أرسل الله إليهم نبيه نوح ١ ليتركوا عبادة الأصنام ويعبدوا الله وحده، فقال لهم نوح: ﴿يا قوم﴾ [الأعراف: آية ٥٩] حذف ياء المتكلم، والأصل: (يا قومي) والمنادى المضاف إلى ياء المتكلم أصله فيه الخمس اللغات المعروفة (١) منها حذف ياء المتكلم.

﴿اعبدوا الله﴾ [الأعراف: آية ٥٩] أصل العبادة في لغة العرب (٢): الذل والخضوع، فكل خاضع ذليل تسميه (عابدا) وكل ما خضع وذل فقد عبد، ومنه قول طرفة بن العبد في **معلقته** (٣):

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٢) انظر: المفردات (مادة: عبد) ص ٥٤٢.

(٣) شرح القصائد المشهورات (١/ ٦٠).

وقوله: «تباري» أي: تعارض. والعناق: الكرام. والناجيات: السريعات. والوظيف: عظم الساق. والمور: الطريق. والمعبد: المذل. " (١)

"ليثبت عتبة بابه (١). ولم تزل جرهم حتى شب فيهم إسماعيل، وتزوج منهم، وتعلم منهم العربية، وكانت سدانة البيت عند أولاد إسماعيل إلى آخرهم نابت بن إسماعيل، فلما مات نابت أخذ الجرهميون مفاتيح الكعبة، وصارت عندهم سدانة البيت، كما قال شاعرهم لما أجلتهم خزاعة (٢):

وكنا ولالة البيت من بعد نابت ... نطوف بذاك البيت والخير ظاهر

فأرسل نبي الله إسماعيل لجرهم في مكة المكرمة، ثم مات إسماعيل وكبار أولاده، وأخذ الجرهميون سدانة البيت، ولم يزل البيت عند جرهم، وقد بنوه -جرهم- أيام ولايتهم عليه، كما قال زهير بن أبي سلمى في **معلقته** (٣):

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله ... رجال بنوه من قريش وجرهم

ولم يزل جرهم هم أهل بيت الله الحرام حتى طغوا وبغوا.

ويزعم المؤرخون أن رجلا منهم يسمى (إسافا) وامرأة تسمى (نائلة) دخلا جوف الكعبة فزنى بها في جوف

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ٤٤٨/٣

الكعبة، وأن الله مسخهما حجرتين، وأنهما هما اللذان أخذهما الخبيث الخسيس اللعين: عمرو بن لحي - الذي ضيع بقايا دين إبراهيم، وجاء بعبادة الأصنام، وبحر البحائر والسوائب - ووضع أحدهما على الصفا، والثاني على المروة، وكانوا يسجدون لهما في

(١) تقدم تخريجه في الصفحة السابقة.

(٢) البيت لعمرو بن الحارث بن مضاض من قصيدة له ذكرها ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢ / ١٨٦).

(٣) شرح القصائد المشهورات (٢ / ١٠٨) .. (١)

"الجبال بيوتا ينحتونها في الجبال.

وقراءة الحسن شاذة: ﴿تنحتون من الجبال بيوتا﴾ (١) وإن كانت قياسية؛ لأن (فعل) إذا كانت حلقية العين أو اللام يقاس في مضارعها الفتح (٢)، إلا أن السماع (تنحتون) بالكسر، وهي قراءة السبعة وغيرهم؛ وقراءة الحسن: «تنحتون» شاذة، وأشد منها قراءة من قرأ: ﴿تنحاتون﴾ بإشباع الفتحة، فهذه قراءة شاذة جدا، أشد من الأولى ف (تنحتون) بفتح الحاء شاذة، وإشباع الفتحة ألفا أشد وأشد، وإن كان إشباع الفتحة بألف يسوغ في كلام العرب، هو مسموع في كلام العرب، إلا أنه لا يجوز قراءة، وهو موجود في كلام العرب، ومنه قول عبد يغوث بن وقاص (٣):

وتضحك مني شيخة عبشمية ... كأن لم ترى قبلي أسيرا يمانيا

فأشبع الفتحة بالألف، وأصل الفعل مجزوم، فالأصل: «تر» بلا ألف، أشبع الفتحة ألفا. وقول الآخر (٤):
إذا العجوز غضبت فطلق ... ولا ترضاها ولا تملق

الأصل: (ولا ترضاها) فأشبع الفتحة. ومنه في وسط الكلام قول عنتره في **معلقته** (٥):

(١) المصدر السابق (٢ / ٥٣)، القرطبي (٧ / ٢٣٩)، البحر المحيط (٤ / ٣٢٩)، الدر المصون (٥ / ٣٦٤).

(٢) انظر: القرطبي (٧ / ٢٣٩).

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ٥٠١/٣

(٣) البيت في المحتسب (٦٩ / ١)، المفضليات ص ١٥٨.

(٤) البيت لرؤبة، وهو في الخصائص (٣٠٧ / ١)، اللسان (مادة: رضي) (١ / ١١٧٩).

(٥) ديوان عنترة ص ١٢٢.. " (١)

"فلما تمردوا وطغوا ﴿فَعَقَرُوا الناقَةَ﴾ العرب تقول: عقر البعير إما قطع عرقوبه. هذا أصل العقر، إذا قطع عرقوبه. وكانت عادة العرب إذا أرادوا أن ينحروا الإبل ضربوا عراقيبها بالسيوف حتى تسقط فينحروها، وصار العقر يطلق على النحر، وعلى قطع العرقوب، وعلى كل جرح في البعير، حتى أنهم إذا جرح ظهره بدبر ونحوه تقول العرب: عقره، وهو معنى مشهور في كلام العرب (١)، ومنه قول امرئ القيس في **معلقته** (٢):

تقول وقد مال الغيظ بنا معا ... عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل

تعني أنه أثر بالدبر في ظهره. فمعنى (عقروها): قتلوها. وقد بينا قصتها فيما فكرنا الآن أن تينك المرأتين الخبيثتين استنفرا لها ذينك الرجلين وهما: قدار بن سالف، ومصدع، وأنهما استهويا سبعة من قومهم فكانوا تسعة رهط، وهم التسعة الرهط المذكورون في سورة النمل، وأن مصدعا وقدارا كمنيا لها عند صدورهما من الماء في أصل صخرات، فانتظم مصدع عضلتها بسهمه، وعقروها قدار بسيفه فقطع عرقوبها فسقطت ورغت، ثم طعن في لبتها فنحروها. وهذا معنى ﴿فَعَقَرُوا﴾ بمالأة منهم.

﴿فَعَقَرُوا الناقَةَ﴾ هي ناقة الله التي أخرجها آية لهم: ﴿وَعَتُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ العتو: التكبر والتمرد، تمردوا وتكبروا عن قبول أمر ربهم، وعقروا الآية التي أجاءهم الله بها معجزة لنبيه، ثم قالوا في

(١) انظر: المفردات (مادة: عقر) ص ٥٧٧، القرطبي (٧ / ٢٤٠)، الدر المصون (٥ / ٣٦٦).

(٢) ديوان امرئ القيس ص ١١٣.. " (٢)

"الأصول: أن من صيغ العموم إضافة المفرد إذا كان اسم جنس إلى معرفة، فإنه يعم، ونظيره في القرآن: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ [إبراهيم: آية ٣٤] أي: نعم الله ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره﴾ [النور: آية ٦٣] أي: أوامره ﴿إن هؤلاء ضيغي﴾ [الحجر: آية ٦٨] أي: أضيافي، ونحو ذلك كثير معروف في الأصول وفي العربية (١).

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ٥٢٥/٣

(٢) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ٥٣٠/٣

ومعنى: ﴿جاثمين﴾ هو خبر أصبحوا، والجاثمون جمع تصحيح للجاثم، والجاثم: المتصف بالجثوم، وأصل الجثوم: هو أن يكون الإنسان منكبا على وجهه، ركبته في الأرض، ومكانه يسمى (المجثم) فالذي يفعله ولد الظبية إذا كان منبطحا منكبا على وجهه يسمى (جثوما) ومكانه يسمى (المجثم) على القياس (٢)، ومنه قول زهير بن أبي سلمى في **معلقته** (٣):

بها العين والآرام يمشين خلفه ... وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

فمعنى ﴿جاثمين﴾ منكبين على وجوههم موتى، مفارقة أرواحهم أبدانهم، ليس منهم داع ولا مجيب، حلت بهم نقمة الله - جل وعلا - وعذابه المستأصل المتصل بعذاب الآخرة (والعياذ بالله، وهذه النكالات التي وقعت في الأمم يجب الاعتبار بها، وأن يخاف الموجودون في الدنيا من عصيان الله، ومبارزة رسله بالمعصية

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير (١٢ / ٥٤٦)، القرطبي (٧ / ٢٤٢) عمدة الحفاظ (مادة: جثم) ص ٨٨.

(٣) شرح القصائد المشهورات (١ / ١٠٠).

و (العين): البقر. و (الآرام): الظباء. و (الأطلاء): أولادها. و (خلفة): فوجا بعد فوج.. " (١)

"تعالى: ﴿فجعلنا عاليها سافلها﴾ [هود: آية ٨٢] وجعل العالي هو السافل هو معنى القلب والأفك؛ لأن العرب تقول: أفك الشيء يأفكه إذا قلبه، ومنه سمي أسوأ الكذب (إفكا) لأنه قلب للحقيقة عن ظاهرها الصحيح إلى شيء آخر باطل.

﴿إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة﴾ [الأعراف: آية ٨٠] ﴿أتأتون﴾ هنا همزة إنكار، أنكر نبي الله لوط عليهم الفاحشة، وقد قدمنا أن الفاحشة (١) في لغة العرب أنها كل خصلة متناهية في القبح تسميها العرب فاحشة، وكل شيء بالغ نهايته تسميه العرب فاحشا، ومنه قول طرفة بن العبد في **معلقته** (٢):

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي ... عقيلة مال الفاحش المتشدد

فسماه فاحشا لما بلغ نهايته في البخل. فالفاحشة: الخصلة المتناهية في القبح والشناعة، وهذه الخصلة الخسيسة القبيحة هي فاحشة اللواط - قبحها الله وقبح مرتكبها - ولذا أنكرها نبي الله لوط عليهم، وبين أنه مبغض لها غاية البغض في قوله: {إني لعملكم من القالين} [الشعراء: آية ١٦٨] أي: من المبغضين الكارهين أشد البغض والكراهية. ﴿أتأتون الفاحشة﴾ أي: الخصلة الذميمة الخسيسة الدنية البالغة غاية

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ٥٣٣/٣

الدناءة والخبث والفحش والقباحة، وهي إتيان الرجال في أدبارهم، وهي فاحشة اللواط - قبحها الله وقبح مرتكبها - فإنها فاحشة خسيصة قبيحة لم يسبق إليها أحد قوم لوط، كما قال هنا: ﴿ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ الباء هذه تأتي

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.. " (١)

"وهو حظ الإثبات منها، ﴿واجتنبوا الطاغوت﴾ [النمل: آية ٣٦] وهو حظ النفي منها ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون (٤٥)﴾ [الزخرف: آية ٤٥] وهكذا. وهذا من تاريخ الأنبياء والقصص القرآنية يدل على عظمة هذه الكلمة، وأنها هي رسالة الله في أرضه لخلقه، حتى إنه (جل وعلا) حصر جميع الوحي فيها في سورة الأنبياء في قوله: ﴿قل إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد﴾ [الأنبياء: آية ١٠٨] وغير ذلك من الآيات و (إنما) أداة حصر لشدة أهمية هذه الكلمة. وهي مركبة من نفي وإثبات، إثباتها قوله: ﴿اعبدوا الله﴾ وهي الأمر بعبادته وحده. أصل العبادة الذل والخضوع، ومنه قيل للعبد (عبد) لذله وخضوعه بين يدي سيده، فكل خاضع ذليل يقال له: عبد وعابد. فالعبادة: الذل والخضوع، وهو معنى معروف في كلام العرب مشهور، ومنه قول طرفة بن العبد في **معلقته** (١):

تباري عتاقا ناجيات وأتبعته ... وظيفا وظيفا فوق مور معبد

يعني: فوق طريق مذلل. ومعناها في الاصطلاح (٢): هي الذل والخضوع لخالق السماوات والأرض (جل وعلا) بكل ما أمر أن يتقرب إليه به على وجه الذل والخضوع والمحبة. فلا تكفي المحبة عن الذل والخضوع، ولا الخضوع عن الذل والمحبة؛ لأن الذليل الخاضع إذا كان غير محب لمعبوده قد يكون مبغضا له، ومن أبغض معبوده فهو كافر ضال. والمحبة وحدها لا تكفي؛ لأن الذي

(١) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٥٩) من هذه السورة.

(٢) السابق.. " (٢)

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ٥٤١/٣

(٢) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ٥٧٥/٣

"متى ما تلقني فردين ترجف ... روائق أليتيك وتستطارا

وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف مشهور عند العلماء وطلبة العلم، وهو: أن الله في هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف بين أن الذي أهلك الله به قوم شعيب رجفة، حيث قال: ﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين (٩١)﴾ [الأعراف: آية ٩١] جاثمين: أي: موتى، وكل واحد منهم منكب على وجهه لا روح في جسده، والجاثم: الذي يلزم محلا واحدا، لربما كان على وجهه كما هو معروف، ومنه قول زهير في معلقته (١):

بها العين والآرام يمشين خلفه ... وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

المجثم: مكان الجثوم، وهو المكان الذي كان فيه منكبا على وجهه غالبا. وهنا قال إن سبب إهلاكهم بالرجفة، وصرح بسورة هود بأن سبب إهلاكهم صيحة، حيث قال: ﴿وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ [هود: آية ٩٤] وصرح في سورة الشعراء أن قوم شعيب أصحاب الظلة كان عذابهم في ظلة، المذكور في قوله: ﴿فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم﴾ [الشعراء: آية ١٨٩] تارة يعبر عن سبب إهلاكهم بالرجفة، وتارة بالصيحة، وتارة بالظلة، فهذا هو وجه السؤال المعروف في هذه الآيات (٢).

وحاصل الجواب: أن العلماء اختلفوا - كما قدمنا - هل شعيب أرسل إلى أمة واحدة أو أرسل إلى أمتين (٣)؟ وكان قتادة

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٨) من هذه السورة.

(٢) انظر: الأضواء (٢/ ٣٢٧).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨٥) من هذه السورة.. " (١)

"إلى (مهما) إلا أن الضمير المذكر روعي به لفظ (مهما) والضمير المؤنث روعي به معنى الآية المبينة لـ (مهما). ومن علامات الاسم عند علماء العربية: رجوع الضمير، فمن علامات أن (مهما) اسم: رجوع الضمير إليها، وقد رجع إليها ضمير مذكر باعتبار اللفظ، وضمير مؤنث باعتبار المعنى، كما جاء ذلك فيها في قول زهير (١):

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ٦٠٩/٣

ومهما تكن عند امرئ من خليقة ... ولو خالها تخفى على الناس تعلم

﴿تأتنا به من آية﴾ (من) بيانية. والآية بيان ل (مهما). أي: من شيء تأتينا به مبنيا كونه آية.

وفي الآية سؤال: كيف أقروا بأنه آية، وزعموا أنه جاء بها ليسحروهم؟

وأجيب عن هذا: بأن قولهم: ﴿من آية﴾ أي: بزعمك ودعواك، لا أنهم يقرون بذلك.

﴿لتسحرنا بها﴾ لتصرفنا بها عن ديننا وتخدعنا عما نحن فيه.

﴿فما نحن لك بمؤمنين﴾ بوجه من الوجوه، ولا بحال من الأحوال، ولو أتيت بما أتيت به من الآيات؛ لأن

(مهما) عموم شامل يدل على أنه لو جاء بجميع الآيات لكانوا كما قالوا، فلما تمردوا هذا التمرد العظيم،

وعاندوا هذا العناد الكبير، ولجوا هذا اللجاج الشديد، عاقبهم الله معاقبات دنيوية بعضها يتبع بعضها، قال:

﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾ [الأعراف: آية ١٣٣] قد تقرر في فن الأصول

(١) البيت في **معلقته** (شرح القصائد المشهورات ١ / ١٢٥)، البحر المحيط (٤ / ٣٧١)، الدر المصون

(٥ / ٤٣٢) .." (١)

"يغنونكم سوء العذاب، كما تقول لمن طلب السلعة: سامها. والعلماء يقولون: سامه كذا: إذا أذقه

إياه، ومنه: سامه العذاب: إذا أذقه العذاب وكلفه إياه. وهو معنى مشهور في كلام العرب، ومنه قول عمرو

بن كلثوم في **معلقته** (١):

إذا ما الملك سام الناس خسفا ... أبينا أن نقر الذل فينا

ومعنى ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾: يذيقونكم ويكلفونكم سوء العذاب، والإضافة في قوله: ﴿سوء العذاب﴾

من إضافة الصفة إلى موصوفها؛ أي: يذيقونكم العذاب الموصوف بسوء من يقع عليه؛ أي: العذاب السيئ

الشديد.

﴿يقتلون أبناءكم﴾ قرأ هذا الحرف عامة القراء غير نافع: ﴿يقتلون أبناءكم﴾ وقرأه نافع وحده: ﴿يقتلون

أبناءكم﴾ بسكون القاف وضم التاء (٢). وقرأ مع نافع ابن كثير: ﴿سنقتل أبناءهم﴾ (٣) [الأعراف: آية

١٢٧] والجمهور يقرءون: ﴿سنقتل﴾ و ﴿يقتلون﴾ بصيغة التضعيف؛ لأن التضعيف يدل على التكثير،

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ١١١/٤

يقتل أولادهم كثيرا. وهذا معنى قوله: ﴿يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾ أي: إناثكم يتركوهن حيات.

وفي هذه الآية الكريمة ونظائرها في القرآن سؤال معروف، وهو أن التحقيق في قوله: ﴿يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾ كأنه بدل من قوله: ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ [الأعراف: آية ١٤١]

(١) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٤٩) من سورة البقرة.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢١٤.

(٣) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢١٣.. (١)

"العرب: هو كل إلقاء جامع بين الخفاء والسرعة تسمية العرب (وحيا)، فكل من ألقى شيئا بخفاء وسرعة فهو وحي في كلام العرب؛ ولأجل ذلك كانت العرب تطلق اسم الوحي على الكتابة، وعلى الإشارة، وعلى الإلهام؛ لأن كلا من هذه إلقاء في سرعة وخفاء. ويطلقون الوحي على الإلهام، ومنه قوله تعالى: ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر﴾ [النحل: آية ٦٨] أي: ألهمها. ويطلق الوحي على الإشارة، وهو أصح القولين في قوله عن زكريا: ﴿فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا﴾ [مريم: آية ١١] أي: أشار إليهم.

وتطلق العرب الوحي على الكتابة؛ لأنها معان تلقى بأفعال سريعة خفية، وإطلاق الوحي على الكتابة إطلاق كثير مشهور في كلام العرب، وكان بعض المفسرين يقول: منه قوله في زكريا: ﴿فأوحى إليهم﴾ أي: كتب لهم، والأظهر: الإشارة، كما يدل عليه قوله: ﴿إلا رمزا﴾ * واذكر ربك كثيرا [آل عمران: آية ٤١] وإطلاق العرب الوحي على الكتابة مشهور جدا في كلامها، كثير جدا في أشعارها، ومنه قول لبيد بن ربيعة في معلقته (١):

فمدافع الريان عري رسمها ... خلقا كما ضمن الوحي سلامها

الوحي: جمع وحي، وهو الكتابة، وهو (فعل) مجموع على (فعول)، كفلس وفلوس، ومنه قول عنتره (٢):
كوحى الصحائف من عهد كسرى ... فأهداها لأعجم طمطمي

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ١٣٦/٤

(١) شرح القصائد المشهورات (١ / ١٣٠)، والمدافع هنا: الأودية التي يتصل بعضها ببعض، كأن بعضها يدفع السيل إلى بعض. و «الريان» واد. و «عري»: خلا. و «الرسم»: الأثر. و «خلقاً»: متجردا بعد جدته.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.. " (١)

"(تأذن) تفعل من الأذان، والأذان في لغة العرب: الإعلام، ومنه أذان الصلاة؛ لأنه الإعلام بدخول وقتها مع الدعاء لها، وقد قال تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ [التوبة: آية ٣] والعرب تقول: آذني: أعلمني. ومنه قول الحارث بن حلزة اليشكري (١):
آذنتنا بينها أسماء ... رب ثاو يمل منه الثواء

فتأذن معناه تفعل من الأذان بمعنى الإعلام، أي: أعلم الله الخلق. وقال بعض العلماء (٢): (تأذن) بناء هذا الفعل على (تفعل) يجعله كأفعال القسم. ولذا جاء اللام في قوله: ﴿ليبعثن﴾ معناه أعلم الله جل وعلا. وهذا الإعلام في معنى القسم، أو كأنه مؤكد بالقسم بدليل اللام في قوله: ﴿ليبعثن﴾. ﴿ليبعثن عليهم﴾ أي: ليسلطن عليهم، أي: اليهود ﴿من يسومهم سوء العذاب﴾ يسومهم معناه: يذيقهم سوء العذاب. العرب تقول: سامه العذاب: إذا أذاقه إياه وعذبه به، وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول عمرو بن كلثوم في **معلقته** (٣):

إذا ما الملك سام الناس خسفا ... أبينا أن نقر الذل فينا

﴿إلى يوم القيامة﴾ يوم القيامة إنما سمي يوم القيامة؛ لأن الناس يقومون فيه لخالق السماوات والأرض، كما قال جل وعلا: ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ (٦) [المطففين: آية ٦] وقيل له (القيامة) كما قيل

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: الدر المصون (٥ / ٥٠٠ - ٥٠١).

(٣) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٤٩) من سورة البقرة.. " (٢)

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ٢٥٢/٤

(٢) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ٢٩٠/٤

"والأرض ﴿آل عمران: آية ١٩١﴾ هذا التفكير في خلق السماوات والأرض من ذكرك ربك في نفسك تضرعا وخيفة كما لا يخفى. وهذا معنى قوله: ﴿ولا تكن من الغافلين﴾ [الأعراف: آية ٢٠٥]. ثم إن الله لما أمر عباده المؤمنين بهذه الآداب السماوية وهذه الأوامر الكريمة بين لهم أن ملائكته المقربين يطيعونه ويعبدونه ولا يستكبرون عن عبادته فقال: ﴿إن الذين عند ربك﴾ [الأعراف: آية ٢٠٦] وهم ملائكته (جل وعلا) صلوات الله وسلامه عليهم: ﴿لا يستكبرون عن عبادته﴾ لا يتكبرون عنها أبدا، بل هم خاضعون متذللون عابدون لربهم (جل وعلا). وأصل العبادة في لغة العرب (١): معناها الذل والخضوع. فالعبادة: الذل والخضوع على وجه المحبة خاصة. وكل مذل مخضع تسميه العرب (معبدا) وقيل للعبد (عبد) لذله وخضوعه لسيده، وهذا المعنى معروف في كلام العرب، ومنه قول طرفة بن العبد في **معلقته** (٢):

تباري عتاقا ناجيات وأتبع ... وظيفا وظيفا فوق مور معبد

أي: طريقا مذللا لدوس الأقدام. وإنما قلنا: إن العبادة هي الذل والخضوع لله على وجه المحبة خاصة فلا تكفي المحبة دون الذل والخضوع، ولا يكفي الذل والخضوع دون المحبة؛ لأن الإنسان إذا كان ذله متجردا عن محبة كان يبغض الذي هو يذل له، ومن أبغض ربه هلك، وإذا كانت محبة خالصة لا خوف معها فإن المحب الذي لا يداخله خوف يحمله الدلال على أن يسيء الأدب، ويرتكب أموراً

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من هذه السورة.

(٢) السابق.. " (١)

"يقول الله جل وعلا: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ (٣٥) [الأنفال: الآية ٣٥].

بين الله (جل وعلا) في هذه الآية أن كفار مكة الذين يزعمون أنهم أولياء البيت، ما كانوا يصلون عنده، ولا يعبدون الله عنده، يعني: ليس لهم من الصلاة فيه إلا شيء هو بعيد كل البعد عن الصلاة، يعني: ما كان صلاتهم عند البيت الذي هو أول بيت وضعه الله للناس ما كانت صلاتهم عنده إلا مكاء وتصدية والتحقيق الذي لا ينبغي العدول عنه في معنى المكاء والتصدية (١): أن المكاء هو: الصفير، والتصدية هي: التصفيق. كانت قریش يجتمعون ويطوفون بالبيت عراة، يصفرون ويصفقون، يزعمون أن هذا التصفير والتصفيق والعري عند بيت الله أنه عبادة، ومن أغراضهم بالتصفير والتصفيق: ألا يسمع الناس ما يتلوه النبي

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ٤/٤٦٥

صلى الله عليه وسلم؛ لأن التصفيق والتصفير أصله من إلغائهم ليمنعوا من سماع القرآن، ارآتي في قوله: ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾ (٢٦) [فصلت: الآية ٢٦].

العرب تقول: مكأ، يمكو، مكوا، ومكأ، ومكأ، إذا: صفر.

والصفير: هو الصوت الذي يخرج الإنسان من فيه، المعروف، وهذا معنى معروف في كلام العرب، يسمون التصفير: المكأ. وقد أطلقه عنتره في **معلقته** على صوت الطعنة العظيمة يشخب منها الدم ويسمع لها صوت كالصفير في قوله (٢):

وحليل غانية تركت مجدلا ... تمكو فريسته كشدق الأعلم

قال بعض العلماء: أصله كصوت المكأ. والمكأ: طائر

(١) انظر: ابن جرير (١٣ / ٥٢١)، ابن كثير (٢ / ٣٠٦)، الأضواء (٢ / ٣٥١).

(٢) ديوانه ص ١٢٣.. " (١)

"يعفر لهم ما قد سلف" ﴿وإن يعودوا﴾: اختلف العلماء في المراد بالعود هنا (١)، فقال بعض العلماء، هذه الآيات من سورة الأنفال نزلت بعد وقعة بدر، والمعنى ﴿وإن يعودوا﴾ للقتال كما فعلوا يوم بدر ﴿فقد مضت سنت الأولين﴾ أي: طريقة الله فيما مضى بين رسله وأتباعهم وبين الكفرة (٢).

قال بعض العلماء: ﴿الأوليين﴾ يعني الذين هلكوا منكم فقتلوا وأسروا يوم بدر، مضت سنة الله فيهم، فأظهر عليهم نبيه، ونصره عليهم، فإن عدتم إلى القتال أجرى عليكم تلك السنة؛ لأنه لا تجد لسنة الله تبديلا.

وقال بعض العلماء: المراد بالأوليين الأمم الماضية ممن قبلنا؛ لأن كل أمة كذبت رسولها وتمردت على ربها أهلكها الله (جل وعلا)، يعني: وإن تعودوا إلى ذلك الكفر والطغيان أهلككم كما فعل بجميع الأمم قبلكم

﴿ثم أرسلنا رسلنا تترأكل ما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون﴾ (٤٤) [المؤمنون: الآية ٤٤]، وهذان الوجهان في قوله ﴿سنت الأولين﴾ أي: سنة الله فيهم،

وأصل السنة: الطريقة والشرعة، والشرعة في اللغة: الطريق، والشرائع: الطرق، وكون السنة هي الطريق الذي يمشي عليه أمر معروف في كلام العرب، ومنه قول لبيد بن ربيعة في **معلقته** (٣):

من معشر سنت لهم آبأؤهم ... ولكل قوم سنة وإمامها

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ٤ / ٥٩٠

أي: طريقة متبعة، وطريقة الله مع الكفرة أنهم إن كذبوا رسله

(١) انظر: ابن جرير (١٣ / ٥٣٦)، القرطبي (٧ / ٤٠٣).

(٢) المصدران السابقان.

(٣) شرح القصائد المشهورات (١ / ١٧٤) .. (١)

"عربي معروف موجود في القرآن وفي كلام العرب. قالوا: من أمثلته في القرآن قوله تعالى: ﴿ومن آياته يريكم البرق﴾ [الروم: الآية ٢٤] الأصل: ومن آياته أن يريكم البرق. ونظيره من كلام العرب قول طرفة بن العبد في **معلقته** (١):

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى

ويروى:

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى ... وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

قالوا: الأصل: ولا يحسبن الذين كفروا أن سبقوا. قالوا: والمعنى: أنهم سبقوا. فيصير المفعولان في قوله: «أن سبقوا» لا يظنوا أنفسهم سابقين، أي: فائتين معجزين ربهم. قالوا: وغاية ما في هذا حذف (أن)، وهو موجود في القرآن وفي كلام العرب.

وقال بعض العلماء: ضمير الفاعل يعود إلى النبي صلى الله عليه وسلم، بدلالة أن ضمير الفاعل في الخطاب واقع عليه، أي: لا تحسبن أنت يا نبي الله، ولا يحسبن هو، أي: نبي الله، لا يحسبن الذين كفروا سبقوا. ومعلوم أنه لا يحسب ذلك ولكنه ينهى ليشرع على لسانه لغيره كما قيل له: ﴿لا تجعل مع الله إلها آخر﴾ [الإسراء: الآية ٢٢] ﴿ولا تجعل يدك مغلولة﴾ [الإسراء: الآية ٢٩] ونحو ذلك من الأشياء التي هو لا يفعلها، ﴿ولا تطع منهم آثما أو كفورا﴾ [الإنسان: الآية ٢٤] وعلى هذا القول فتكون قراءة التاء قرينة دالة على الفاعل؛ لأن الفاعل في قراءة التاء ﴿لا تحسبن﴾ أنت يا نبي الله. فيكون المعنى في قراءة الياء: ﴿ولا يحسبن﴾ هو أي: نبي الله، لا يظنن

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ٦/٥

(١) شرح القصائد المشهورات (١ / ٨٠) .." (١)

"وقوله: ﴿والذين كفروا﴾ مبتدأ، و ﴿بعضهم﴾ مبتدأ آخر، و ﴿أولياء﴾ خبر الثاني، والثاني وخبره خبر الأول كما هو واضح. وقد قدمنا في هذه الدروس مرارا (١) أن مادة الكاف والفاء والراء (كفر) أن معناها في لغة العرب التي نزل بها القرآن: الستر والتغطية، فكل شيء غطيته وسترته فقد كفرته، وهذا معنى معروف في كلام العرب مشهور مبتذل في كلامهم جدا، ومنه سمت العرب الليل كافرا؛ لأنه يكفر الأجرام ويغطيها عن العيون بظلامه، ومنه قول لبيد بن ربيعة (رضي الله عنه) في **معلقته** (٢):
حتى إذا ألفت يدا في كافر ... وأجن عورات الثغور ظلامها

ومن هذا المعنى قول لبيد أيضا في **معلقته** هذه (٣):

يعلو طريقة متنها متواتر ... في ليلة كفر النجوم غمامها

يعني: ستر النجوم وغطاها غمامها. هذا أصل المادة، وتكفير السيئات من هذه المادة؛ لأن الله يغطيها ويستترها بحلمه حتى لا يظهر لها أثر يتضرر به صاحبها، وإنما قيل للكافر (كافر) لأنه يغطي أدلة التوحيد بجحوده مع وضوحها، ويغطي نعمة الله ويستترها كأنه ليس عليه إنعام من الله حيث يأكل رزقه ويتقلب في نعيمه ويعبد غيره.

وقوله (جل وعلا) في هذه الآية الكريمة: ﴿إلا تفعلوه﴾ هي (إن) الشرطية أدغمت في (لا) النافية. والمقرر في علم العربية: إن

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.. " (٢)

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ١٤٧/٥

(٢) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ٢١٣/٥

"القول الثاني في هذه الآية الكريمة: أن المراد بقوله: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم﴾ أنها أشهر الإمهال الأربعة التي قدمنا أن التحقيق أن أولها من يوم النحر من ذي الحجة عام تسع، وأنها تنقضي بالعشر من ربيع الثاني من ذلك العام، وإنما قيل لها «حرم» لأن الله حرم فيها قتال المشركين، وقال لهم فيها: سيحوا في الأرض أربعة أشهر، أي: آمنين مدبرين ومقبلين، قتالكم والتعرض لكم حرام. وهذا أظهر القولين هنا؛ لأن اللام في قوله: ﴿الأشهر الحرم﴾ [التوبة: آية ٥] الألف واللام فيها للعهد، والأشهر الحرم المذكورة لم تكن معهودة هنا، والمعهود هنا هي الأربعة المذكورة في قوله: ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾ [التوبة: آية ٢] وعلى هذا فانسلاخها هو ما قدمنا بعد انتهاء العشر الأول من ربيع الثاني كما لا يخفى. وقد بينا أن قول الزهري (رحمه الله) أن ابتداء أشهر الإمهال من شوال (١) [أنه إن صح عنه فهو غلط م نه. والصحيح قول الجمهور، وهو أن ابتداء تأجيل هذه الأشهر الأربعة من يوم النحر، وتنقضي في اليوم العاشر من ربيع الثاني].

وانسلاخ الأشهر: معناه انقضاء مدتها. تقول العرب: انسلخ الشهر، وانسلخ العام: إذا مضى زمانه، وسلخته: إذا كنت في آخر يوم من أيامه وقد مضى علي. وهذا معروف في كلام العرب (٢)، ومنه قول لبيد في معلقته (٣):

- (١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [] زيادة يتم بها الكلام.
 (٢) انظر ابن جرير (١٤ / ١٣٣ - ١٣٤)، القرطبي (٨ / ٧٢)، الدر المصون (٦ / ١١).
 (٣) شرح قصائد المشهورات (١ / ١٤٤) .. (١)
 "إلى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم

وهو كثير في كلام العرب، ومما أنشده له صاحب اللسان قول الشاعر (١):
 إني لأعظم في صدر الكمي على ... ما كان في زمن التجدير والقصر

وقول عنتره في معلقته (٢):

حييت من طلل تقادم عهده ... أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ٢٦٥/٥

لأن (الإقواء) و (الإفقار) معناهما واحد. و (التجدير) و (القصر) معناهما واحد.

واختار كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير الطبري -رحمه الله- أن هذه المعاني كلها يجب حمل (الإل) عليها؛ لأنه شامل للعهد والقراءة، والحلف (٣)؛ أي: لا يراعون فيكم عهداً، ولا قرابة، ولا حلفاً، ولا يراعون الله فيكم. وهذا الذي ذهب إليه هو من حمل المشترك على معانيه، وحمل المشترك على معنييه أو معانيه مما اختلف فيه علماء الأصول، والذي حرره المحققون من أصوليي أصحاب المذاهب الأربعة هو جواز حمل المشترك على معنييه أو معانيه (٤)، فيجوز أن تقول مثلاً: عدا اللصوص البارحة على

(١) البيت في اللسان (مادة: جدر) (١/ ٤١٧).

(٢) البيت في ديوانه ص ١١٨.

(٣) تفسير ابن جرير (١٤/ ١٤٨).

(٤) انظر: شرح الكوكب المنير (٣/ ١٨٩ - ١٩٥)، البحر المحيط في أصول الفقه (٢/ ١٢٦ - ١٤٨، ٣/ ١٦٦ - ٤٧٢)، مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٤٠ - ٣٤١)، زاد المعاد (٥/ ٦٠٦)، قواعد التفسير (٢/ ٨١٩) .. (١)

"الآيات. وقال بعضهم: إن منه قوله تعالى: ﴿ووجد الله عنده فوفاه حسابه﴾ [النور: آية ٣٩] قال بعض العلماء: وفاه حسابه في دار الدنيا بما رزقه على عمله الصالح من العافية. وإن كان الوجه الآخر أصح في الآية، كل هذا الذي هو إثابة الكافر من عمله في الدنيا لا شك مقيد بمشيئة الله؛ لأن ذلك دلت عليه آية سورة بني إسرائيل، وهي قاضية على كل شيء في هذا الباب. أعني قوله تعالى: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً (١٨)﴾ [الإسراء: آية ١٨] فقلوه: ﴿عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد﴾ قيد بالمشيئة للجزاء الثابت في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أنس. وهذا معنى قوله: ﴿إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله﴾ [التوبة: آية ٥٤].

قد قدمنا في هذه الدروس مراراً (١) أن أصل مادة الكاف والفاء والراء معناها التغطية والستر، فكل شيء غطيته وسترته. فقد كفرته، ومنه قيل للزراع: (كفار)؛ لأنهم يكفرون البذر في بطن الأرض، وقيل لليل: (كافر) والعرب تسمي الليل كافراً؛ لأنه يكفر الأجرام ويغطيها بظلامه. وكفر الشيء إذا غطاه وستره، ومن

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ٢٩٣/٥

هذا المعنى قول لبيد بن ربيعة في **معلقته** (٢):

يعلو طريقة متنها متواتر ... في ليلة كفر النجوم غمامها

أي: ستر النجوم وغطاها غمام تلك الليلة. وقوله أيضا في **معلقته** هذه في تسمية الليل كافرا (٣):

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

(٢) السابق.

(٣) السابق.. (١)

"﴿وإذا (١) [أرأوا تجارة أو لها انفضوا إليها] الجمعة: آية ١١].

وقد يرجع إلى أحدهما في المتعاطفات بالفاء، ومن أمثلة رجوعه إلى أحدهما في المتعاطفين بالفاء قول امرئ القيس في **معلقته** (٢):

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها ... لما نسجتها من جنوب وشمأل

فرده لإحدهما. وعلى كل حال فالمعنى: يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله أحق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين، ولكنهم لم يكونوا مؤمنين - قبحهم الله. وهذا معنى قوله: ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين﴾ [التوبة: آية ٦٢].

﴿ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزي العظيم (٦٣)﴾ [التوبة: آية ٦٣].

قدمنا في هذه الدروس مرارا (٣) أن كل فعل مضارع مجزوم بـ (لم) إذا تقدمته همزة استفهام بأن قيل فيه (ألم) كل فعل مضارع مسبوق بـ (ألم) فيه لعلماء التفسير وجهان في جميع القرآن: أحدهما: أن تصير مضارعة ماضوية، ويصير نفيه إثباتا، فأصله مضارع منفي بـ (لم) فتصير حقيقة معناه أنه ماض مثبت فتتقلب المضارعة ماضوية، وينقلب النفي إثباتا، وهذا مطرد كقوله:

(١) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل. وقد أثبت تمام الآية وجعلت ذلك بين معقوفين.

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ٥٧٢/٥

(٢) ديوانه ص ١١٠.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الأنعام.. " (١)

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ٦٠٥/٥